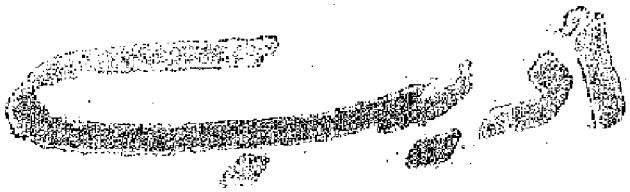

لعميد الأدب

الدكتور طه حسين

أخي العزيز

وددت لو أسميك ولكنك تعلم لماذا لا أسميك وحسب الذين ينظرون في هذا الكتاب أن يعلموا أنك كنت أول المعزين لي حين أخرجني الجور من الجامعة وأول المهنئين لي حين ردني العدل اليها. وكنت بين ذلك أصدق الناس لي ودا في السر والجهر وأحسنهم عندي بلاء في الشدة واللين .

فتقبل مني هذا العمل الضئيل تحية خالصة صادقة لاخائك الصادق الخالص ..

طه حسين

١

زعموا ان من اظهر خصائص الاديب حرصه على أن يصل بين نفسه وبين الناس ، فهو لا يحس شيئا الا أذاعه ولا يشعر بشيء الا اعلنه وهو اذا نظر فى كتاب أو خرج للتروض ، او تحدث الى الناس فأثار شيء من هذا فى نفسه خاطرا من الخواطر ، أو بعث فى قلبه عاطفة من العواطف أو حث عقله على الروية والتفكير ، لم يسترح ولم يطمئن حتى يقيد هذا الرأى ، أو تلك العاطفة أو ذلك الخاطر فى دفتر من الدفاتر أو على قطعة من القرطاس .

ذلك لانه مريض بهذه العلة التى يسمونها الادب ، فهو لا يحس لنفسه ، وانما يحس للناس ، وهو لا يشعر لنفسه وانما يشعر للناس ، وهو لا يفكر لنفسه وانما يفكر للناس . وهو بعبارة واضحة لا يعيش لنفسه وانما يعيش للناس . وهو حين يأتى من الامر هذا كله يخادع نفسه اشد الخداع ويضللها اقبح التضليل . فيزعم انه مؤثر لا يريد ان يستمتع وحده بنعمة الاحساس والشعور والتفكير . وانما يريد ان يشرك الناس فى هذا الخير الذى انتجته طبيعته الدقيقة الخصبة الغنية ، فاذا كان متواضعا ، معتدل الرأى فى نفسه فهو شقى تعس محزون ، يحب ان يعلن الى الناس ما يجد من شقاء وتعس وحزن ، لعلهم يرثون له أو يرأفون به او يشفقون عليه . وربما لم ير فى نفسه ايثارا ، ولم يحس انه شقى وانما آثر نفسه بالخير ، وأحبها قليلا او كثيرا فهو يسجل ما يحس وما يشعر وما يفكر ليحفظه من الضياع وليستطيع العودة اليه من حين الى حين كلما خطر له ان يستعرض حياته الماضية ، وكثيرا ما تعرض له الفرص التى تحمله على ان يستعرض حياته الماضية ،

والذاكرة قصيرة ضعيفة ، فلم لا يسجل خواطره وعواطفه وآراءه التي يتكون منها تاريخه الفردي الخاص ليعود اليه كلما دعاه الى ذلك جد الحياة او هزلها ؟ وما أكثر ما يدعو جد الحياة وهزلها الى ان يستعرض الانسان حياته الماضية وما اختلف عليه فيها من الاحداث .

يخدع الاديب نفسه هذه الضروب من الخداع ، ويعللها بهذه الالوان من التعلات . وحقيقة الامر انه يكتب لانه أديب ، لا يستطيع ان يعيش الا اذا كتب ، يكتب لانه محتاج الى الكتابة كما يأكل ويشرب ويدخن لانه محتاج الى الطعام والشراب والتدخين . وهو حين يكتب قلما يفكر فيما يحسن أن يكتب . وما ينبغي ألا يعرفه القرطاس أو يجري به القلم كما انه حين يأكل ويشرب قلما يفكر فيما يلائم صحته وطبيعته ومزاجه من ألوان الطعام والشراب وأصناف التبغ . انما هي حاجة تضطره الى الحركة ، فيتحرك وتدفعه الى العمل فيعمل . فأما عواقب هذه الحركة ونتائج هذا العمل فأشياء قد يتاح الوقت للتفكير فيها في يوم من الايام حين تصبح امرا مقضيا لا منصرف عنه ولا سبيل الى التخلص منه .

اذا كان هذا كله صحيحا ، وأكبر الظن أنه صحيح ، فيجب أن يكون صاحبي الذي اريد ان اتحدث اليك عنه اديبا . فلست اعرف من الناس الذين لقيتهم وتحدثت اليهم رجلا أضنته علة الادب ، واستأثرت بقلبه ولبه كصاحبي هذا . كان لا يحس شيئا ، ولا يشعر بشيء ، ولا يقرأ شيئا ولا يرى شيئا ولا يسمع شيئا الا فكر في الصورة الكلامية ، او بعبارة ادق في الصورة الادبية التي يظهر فيها ما أحس ، وما شعر وما قرأ ، وما رأى وما سمع . وكان يجد مشقة شديدة في اخفاء تفكيره هذا على الناس ، فكثيرا ما كان يقول لاصحابه اذا رأى شيئا أسخطه أو أرضاه : ما أخلق هذا الشيء ان ينشيء صورة ادبية ممتعة للسخط أو الرضاء ! وكان يقضي نهاره في السعي والعمل والحديث حتى اذا انقضى النهار ، وتقدم الليل وفرغ من أهله ومن الناس وخلا الى نفسه ، أسرع

الى قلمه وقرطاسه وأخذ يكتب ويكتب ويكتب حتى يبلغ منه الاعياء وتضطرب يده على القرطاس بما لا يعلم ولا يفهم ، وتختلط الحروف امام عينيه الزائغتين ، ويأخذه دوار فاذا القلم قد سقط من يده ، واذا هو مضطر الى ان يأوى الى مضجعه ليستريح . ولم يكن نومه بأهدأ من يقظته . فقد كان يكتب نائما كما كان يكتب يقظا ، وما كانت احلامه فى الليل الا فصولا ومقالات ، وخطبا ومحاضرات ، ينمق هذه ويدبج تلك ، كما كان يفعل حين كانت تجتمع له قواه العاملة كلها ، وكثيرا ماكان يحدث اصدقاءه بأطراف غريبة قيمة من هذه الفصول والمقالات التى كانت تمليها عليه أحلامه فيجدون فيها لذة ومتاعا .

وكثيرا ماكان يقرأ عليهم فصولا من النثر ومقطوعات من الشعر أملتها عليه يقظته ، وسجلتها يده حين كان يخلو الى نفسه بعد ان يكون قد ملأ عينيه واذنيه وحسه وشعوره وقلبه وعقله بما يحيط به من الاشياء وبما يحسه من الناس ومن الحياة .

وكان أصدقاؤه اذا سمعوا منه هواجس الاحلام او خواطر اليقظة الحوا عليه فى أن يذيع ذلك وينشره ، فيبتسم ثم يهز ، ثم يمتنع عليهم ويلح فى الامتناع ، لانه كان يؤمن بأن مايكتبه لم يصل بعد الى ان يكون خليقا بأن يقدم لى المطبعة ، فهو كان يخاف المطبعة ويكبرها ويحيطها بشىء من التقديس غريب ، وكان يتحدث بأن مايقدم الى المطبعة من الاثار المكتوبة أشبه شىء بماكان يقدمه الوثنيون القدماء الى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم به الآن المؤمنون المترفون الى الههم من الصلاة والدعاء . فمن الحق أن تصطفى الضحية وان يتخير القربان ، وان تكون الصلاة قطعة من النفس وان يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعا .

وكان صاحبنا يرى ان ليس فيما كتب ضحية تصطفى ولا قربان يختار . وانه لم يوفق بعد الى ان يودع القرطاس قطعة من نفسه ، أو يسطر عليه صورة قلبه وعقله . فمازالت الآماد بينه

وبين المطبعة بعيدة . ومازالت الاستار والسجف دونه مسدلة .

فليكتب اذا لنفسه لا للمطبعة ، فاذا ضاق بنفسه وبما تملى فليظهر اصدقاءه على شيء منه وليرض هذه الحاجة القوية التي نحسها جميعا الى ان نشرك الناس فيما نجد من حس او شعور . والحق ان صاحبي لم يكن يقدم على هذا الا كارها مضطرا حين لا يجد بدا من الاقدام . او حين يسأله اصدقاؤه عما احدث بعدهم . وكان حياؤه يمنعه من اظهار عقله وقلبه ، كما يمنعه من عرض جسمه عاريا على الناس . ولكن اصدقاءه لم يكونوا في حاجة الى ان يروا شخصه عاريا . وكانت حاجتهم شديدة الى ان يروا نفسه كما هي ، لانها كانت جميلة خلابة تروعهم حينا . وتثير في نفوسهم الحب والمودة دائما

كان قبيح الشكل نابي الصورة تقتحمه العين ولا تكاد تثبت فيه ، وكان الى القصر اقرب منه الى الطول . وكان على قصره عريضا ضخم الاطراف مرتبكها كانما سوى على عجل ، فزادت بعض اطرافه حيث كان يجب ان تنقص ونقصت حيث كان يحسن ان تزيد . وكان وجهه جهما غليظا يخيل الى من رآه ان في خديه ورما فاحشا . وكان له على ذلك انف دقيق مسرف في الدقة ، منبطح غال في الانبطاح ، قد اتصل بجبهة دقيقة ضيقة لا يكاد يبين عنها شعره الغزير الجعد الفاحم .

لم تكن قد تقدمت به السن ، بل لم يكن جاوز الثلاثين ، ولكن علامات الكبر كانت بادية على وجهه وقده لا يخدع عنها احد . كان على قصره مقوس الظهر اذا قام ، منحنيا اذا جلس ، ولعل ادمانه على الكتابة والقراءة ، واسرافه في الانحناء على الكتاب او القرطاس هما اللذان شوها قده هذا التشويه . وقلما كان وجهه يستقيم امامه ، انما كان منحرف العنق دائما الى اليمين او الى الشمال ، وقلما كانت عيناه الصغيرتان تستقران بين جفونه الضيقة ، انما كانتا مضطربتين دائما لا تكادان تستقران

على شيء حتى تدعاه مصعدتين في السماء ، او تنحرفا عنه الى ما يليه من احدى نواحيه

ولم يكن صوته عذبا ولامقبولا ، وانما كان غليظا فجا ، ولكنه مع ذلك لم يكن يخلو من نبرات حلوة تجرى عليه اذا قرأ شيئا فيه تأثر وانفعال . وكان له ضحك غليظ مخيف يسمع من بعيد ، بل كان كل ما يصدر عن صوته غليظا مخيفا ، يسمع من بعيد ، ولم يكن للنجوى معه سبيل . وكثيرا ما ضايقه ذلك حين كان في باريس . وكثيرا ما حمل ذلك الناس عامة ، واصدقاءه خاصة ، على ان يضيقوا به ويجتنبوه اذا لقوه في قهوة او ناد او ملعب من ملاعب التمثيل

وهو على رغم هذا كله كان أحب الناس الي ، واكرمهم على ، وآثرهم عندى ، واحسنهم مسلكا الى نفسي ، ومنزلا من قلبي . كان يزورني فانصرف اليه عن كل شيء وأقضي معه الساعات ، فاذا تركني خيل الى انى لم اقض معه الا اللحظات القصار . وكنت اذا اعياني الدرس واحتجت الى الرياضة أو الراحة آثرت زيارته والتحدث اليه والاستماع له على كل ما كانت تقدم الى القاهرة او باريس من انواع الرياضة والراحة

٢

فقد عرفته في القاهرة قبل ان يذهب الى باريس ، ثم ادركته في باريس بعد ان سبقني اليها . عرفته مصادفة وكرهته كرها شديدا حين لقيته لاول مرة ، كنا في الجامعة المصرية القديمة في الاسبوع الاول لافتتاحها ، وكنت اختلف الى ما كان يلقى فيها من المحاضرات ، حريصا عليها مشغوفا بها معتزما أن لا أضيع حرفا مما يقول المحاضرون . وكان مجلسي لهذا دائما قريبا من الاستاذ . فاني لمصغ ذات ليلة لى الاستاذ واذا بصوت من ورائي ينطلق بالحديث هادئا ، ولكنه على هدوئه يغمرني جميعا ، ويكاد يخفي على

صوت الاستاذ فأجد فى التخلص منه فلا أفلح ، واضيق بهذا الصوت ويضيق به صاحباى اللذان يكتنفانى .

فالتفت الى صاحب الصوت نطلب اليه الصمت فلا يسكت الا ريثما يستأنف الحديث ، ونراجعه مرة اخرى فلا يحفل بنا ، فنشكوه الى الاستاذ فيضطره الاستاذ الى الصمت . حتى اذا انتهت المحاضرة وخرجنا من غرفة الدرس رأيناه قد وقف لنا ينتظرنا ، فيعرض لنا فى غلظة فاذا زعمنا له ان من حقنا ان نسمع الاستاذ ، وان ليس له ان يصرفنا عنه ، قهقه قهقهة مخيفة وقال فى صوت ما نشك ان الاستاذ قد سمعه : « وماذا تريدون ان تسمعوا ؟ ولكنكم معذورون ، جئتم من الازهر ، فكل شىء عندكم قيم ، وكل شىء عندكم جديد » .

واجتهدنا بعد ذلك فى أن نجتنب مكانه من غرفة المحاضرات وان نختار لانفسنا مجلسا بعيدا منه اقصى غاية البعد . تركناه ولكنه لم يتركنا ، وكأن عمائمنا كانت تغريه بنا وتحرضه علينا . فلم نكن نخرج من محاضرة حتى يعرض لنا ويأخذ بجبتى او قفطانى وهو يسألنى : « أعجبتك المحاضرة ؟ » فان قلت : « نعم » قال : « وماذا أعجبك منها ، وهل فهمتها على وجهها ؟ » وكان يقول لى : « هون عليك من هذا الحرص على المحاضرات ولا تتهالك عليها هذا التهالك ، فهى اقل غناء مما تظن وخير لك أن تقرأ من أن تسمع »

فلما ألح على فى ذلك سألته : واذا كنت ترى هذا الرأى فما اختلافك الى الجامعة ؟ وما استماعك للمحاضرات ؟ وما تهويشك علينا بصوتك العالى وحديثك الذى لا ينقطع ؟ فضحك وقال : الجامعة شىء جديد احب ان أراه ، وقد سئمت القهوة ، ولو لم يكن فى الجامعة الا انت واصحابك هؤلاء الذين تتفتح عقولهم للعلم الحديث فيتلقون ما يسمعون فى كلفة ونهم مصدرهما الجهل العميق ، لكان هذا كافيا لان اختلف الى الجامعة واستمع للمحاضرات . ثم سألنى ذات يوم : اين تقيم ؟ اجبته : اقيم فى حى كذا . قال : ومع من تقيم ؟ قلت : مع جماعة من الاهل

والاصدقاء كلهم يطلب العلم في الازهر او في المدارس المدنية ».
قال : ان منزلك بعيد وليست بيئتك بالتي تحب . فانا لا احب مجالس الطلبة ، وأنا مع ذلك حريص على ان اجلس معك واتحدث اليك فاطيل الحديث ، بل انا حريص على ان اقرأ معك بعض الكتب ، فلابد اذن من أن نلتقي ، ومن ان نلتقي في نظام واطراد ، فليكن ذلك عندي ، ولك على أن أردك الى أهلك وأصدقائك قبل أن يتقدم الليل ، دون ان تجد في ذلك مشقة او تحتمل فيه عناء

وكان يقول هذا بصوته الغليظ العريض في لهجة الحازم الواثق بأن أمره سيطاع ، وقد هممت ان ارد عليه معتذرا ، وما كان أكثر المعاذير !

فلم اكن استطيع ان اسير ولا اتصرف الى احد دون اذن من اخي ، وكان علي ان اغدو مع الفجر الى درس الاصول ، ولم يكن بد من ان استعد لهذا الدرس وغيره من دروس الازهر ، وان اعوض هذا الوقت الذي اضيعه كل مساء في الجامعة على كره من اخي في القاهرة ، واسرتي في الريف .

هممت ان اعتذر ، ولكنه لم يمهلني ولم يتح لي ان اقول حرفا وانما استوقف عربة ودفعني فيها دفعا ، وامر خادمي الاسود الصغير ان يجلس الى جانب السائق ، وجلس هو الى جانبي وقال للسائق بصوته الغليظ العريض : الى القلعة ، وكنت اسكن في اقصى الجمالية . فلما اخذت اقدر بعد الامد بين داره وداري ، وهممت ان اتكلم ، وضع يده على كتفي وقال : الم اقل انى سأردك الى حيث تقيم ؟!

٢

وقطعت بنا العربة احياء مختلفة ، ومضت بنا في اجواء متباينة ، وكنت احس اختلاف الاحياء ، وتباين الاجواء فيما يصل الى من اصوات الناس وحركاتهم ومن اضطراب الاشياء من حولنا ، كما كنت احس ذلك في سير العربة نفسها وفي لهجة

السائق وهو يدفع الناس امامه ويطلب اليهم ان يتنحوا له عن الطريق او ان يجنبوا انفسهم خيله وعربته .

كان الحي رشيقا انيقا ، وكان الجو سمحا طليقا ، وكانت الحركات والاصوات من حولي لا تخلو من شدة وعنف ، ولكن فيها ظرفا وتأنقا ، حتى اذا بلغنا شارع محمد على ضاقت الطريق ، واشتد امامنا الزحام ، وكثر من حولنا الصياح ، واخذت اصوات الاطفال ونساء الشعب تختلط باصوات الرجال من العمال وسائقي عربات النقل ، وانتشرت في الجو روائح ثقيلة تمتاز منها روائح البصل والثوم وقد اخذت تعمل فيهما النار . وارتفع صوت السائق واتصل ، وكثر نذيره وتحذيره ، وكثر حوله لوم الناس له وتأنيبهم اياه ، وتردد في الهواء هذا الصوت المعروف الذي يحدثه السائقون باسواطهم حين يأتون بها هذه الحركة التي يردعون بها الخيل ينهبون بها المارة ، ثم تنفسح الطريق وتتسع ويصفو الجو ، ويخف الهواء وتهدأ الحركة ويتنفس السائق مطمئنا ، وتمشي الخيل رفيقة . ولكن ذلك لا يطول الا ريثما تنعطف العربة ذات اليمين واذا نحن في حارة ضيقة هادئة قد ثقل فيها الهواء وفسد فيها الجو وكثرت في ارضها الاخاديد . فالعربة تقفز بنا قفزا والسائق يهز سوطه في الهواء ، ويحذر وينذر في هدوء ورضى ، ويدعو ذلك بعض النوافذ الى ان تفتح ، ويثير ذلك بعض الصبيان فيخرجون من بيوتهم او من اوكارهم يعبثون بالسائق . ومنهم من يتعلق بالعربة ثم ينصرف عنها ونحن نضحك من هذا كله ، ونضحك من السائق خاصة وهو ينظر امامه ويلتفت وراءه ، ويضرب الهواء بسوطه ، ويطلق لسانه بالفاظ ترق حتى تبلغ المداعبة الحلوة ، وتغلظ حتى تصل الى الشتم القبيح ، وكل ذلك يصل الى نفسي فيحدث فيها آثارا مختلفة ، ولكنها على اختلافها تتفق في شيء واحد هو الطرافة ، لاني لم أكن تعودت ركوب العربات ، ثم يقف السائق فجأة وانزل من العربة ، واذا صاحبي يقول لي : لم نبلغ البيت بعد . ولكننا انتهينا الى حيث

لا تستطيع العربة ان تمضي ، فهل تعودت التصعيد والرقي في الجبل ، فانا لا احب ان اسكن في السهل المنبطح فاكون كغيري من الناس . وانما احب ان اشرف على القاهرة ، وان اخيل الى نفسي اني لست منغمسا فيها ، واني ادخلها اذا غدوت الى عملي مع الصبح واخرج منها اذا رحت الى بيتي مع الليل . ولست اخفي عليك اني اجد لذة قوية حين ادخل المدينة مع النهار هابطا اليها من هذه الربوة كأني اغزوها واسقط عليها سقوط النسر على فريسته ، واجد لذة اخرى ليست اقل من تلك اللذة قوة حين امضي النهار كله في المدينة مضطربا مع الناس فيما يضطربون فيه من عمل ، خائضا مع الناس فيما يخوضون فيه من حديث ، مشاركا للناس فيما يأتون من خير وشر ، ثاقفا ضاريا منتفعا محتملا للضرر ، حتى اذا كان المساء ضقت بهم وضاقوا بي ، واديت اني جاممتكم هذه الجديدة اريح نفسي بما اسمع من كلام فيه المتاع وفيه السخيف . ولكنه على كل حال ليس بذي غناء ، حتى اذا اخذت بحظي من هذه الراحة الاولى ، رحت الى بيتي ، فلا تسل عن هذا الشعور العذب الذي يغمر قلبي شيئا فشيئا كلما دنوت من هذا المكان احس كأني انسل من المدينة ، وانخفف من اثقالها والقي آثامها من ورائي واطهر جسمي ونفسي من اوضارها وادرانها ، حتى اذا رقيت هذه الربوة وبلغت قمتها هذه — وكنت قد احسست الجهد من التصعيد في طريق عالية ملتوية — وقفت وقفة من كان في مكروه فخلص منه . وارسلت زفرة يخيل الي انها تحمل بقية ما علق بنفسي من شر المدينة ، ثم تنفست ملء رئتي مرة ومرة ، ثم اقبلت هادئا مطمئنا قصير الخطى الى هذا الباب . وهنا وقف ودق الباب دقتين ففتح لنا ثم اغلق من دوننا .

٤

وانعطف بنا الى اليمين فمشينا خطوات ، ثم انتهى بنا الى دهليز فرقينا درجات ، وخادم صبية تسعى بين ايدينا وقد حملت في يدها اللطيفة سراجا صغيرا يضطرب منه ضوء ضئيل ، حتى اذا بلغنا اعلى السلم وقف يبحث في جيبه عن بعض الشيء ، ثم أخرج مفتاحا فأداره في قفل امامه حتى اذا فتح له الباب صاح صيحة عريضة ان اخلع نعليك فقد بلغت الغرفة الحرام .

ولم اكد اسمع هذه الجملة حتى انحنيت الى حذائي اريد أن اخلعه حقا ، واي غرابة في ذلك ؟ فقد تعودت خلع الحذاء مرات في كل يوم ، حين كنت اختلف الى الدروس في الازهر او في جامع محمد بك ، او في جامع العدوي ، او في جامع الاشرف ، هناك حيث كنت استمع للدروس الاصول والفقه والنحو والمنطق والتوحيد ، وتعودت خلع الحذاء حين كنت ازور بعض الدور ، ولا سيما دور شيوخنا من العلماء ولا سيما هذا الشيخ الذي كان الخديوي قد نفاه من الازهر نفيا وحظر عليه التعليم فيه . فتبعناه الى داره والححنا عليه في ان يمضي في القاء ما كان يلقي علينا من الدروس لاحبا في علمه ولا تهالكا على شخصه ، ولكن تحديا لذلك السلطان الذي كنا نراه جائرا متحكما ، ولا نريد ان نذعن لجوره ولا لتحكمه ، وآية ذلك اننا نشرنا في الصحف خبر الحاحنا على الاستاذ ، واستجابة الاستاذ لنا ، واختلافنا الى داره في الضحى من كل يوم نسمع منه الاصول في بعض الايام ، والمنطق في بعضها الآخر .

هنالك في الدرب الاحمر كنا نبلغ الدار مختلفين ، فبعضنا يتخذ احذية الشيوخ ، وبعضنا يتخذ احذية الافندية ، وكلنا كان يخلع حذاءه ، اذا بلغ المنظرة ، فلم اجد اذن غرابة في ان يطلب الي صاحبي ان اخلع نعلي حين بلغنا غرفته هذه ، فلعل ما كان

يغطى ارضها من بساط او حصير كانت تقام عليه الصلاة ، كما كانت تقام على ما يغطى ارض المساجد وارض منظرة الشيخ من بساط او حصير . ولكنى لم اكد انحنى على حذائى لاخلعه حتى امتلأ الجو بضحك عريض رائع مخيف ، ثم امتدت الى يد صاحبى الغليظة فردتنى الى اعتدال القامة ، وصاحبى يقول : ماذا تفعل ؟ افتظن انك فى الازهر ؟ او هذا كل ما علمته من البيان ؟ قلت فى شىء من الدهش عظيم : واى غرابة فى ان تخلع النعال عند ابواب الغرف ؟ واين يكون البيان وابوابه من خلع النعال ؟ قال : يا سيدى انهم يدرسون لكم فى الازهر التشبيه والاستعارة والمجاز والكناية . وما اشك فى انك تستطيع ان تعيد على كل ما سمعته من هذا ، ولكنك تملأ صدرك بما لا تفهمه ولا تحسن الانتفاع به ، فانى لم ارد ان تخلع نعليك ، وانما اردت أن تكبر هذه الغرفة التى بلفتها والتى ستدخلها ، لانها غرفة العلم والادب ، ومستقر الاسفار والكتب ، ومهبط الوحى ان كان ما يقع فى نفس رجل مثلى يريد ان يكون اديبا شيئاً يمكن أن يسمى وحيا . فلو انك تدرس علم البيان درس فهم وانتفاع حقا ، لما اعياك ان تفهم عنى ما كنت اريد . قال ذلك فى صوت غليظ يقطعه هذا الضحك الذى يصور السذاجة والمكر وحب السخرية فى وقت واحد ، ثم اخذ بيدى ومضى معى حتى اجلسنى على كرسى امام مائدة لم اكد اضع عليها يدى حتى لمست كتابا

وكانت الخادم فى أثناء ذلك مازالت قائمة وفى يدها اللطيفة سراجها الصغير . فالتفت اليها مغضبا ضاحكا معا ، وهو يقول : وما وقوفك انت هنا كالصنم ؟ ثم خفض صوته قليلا وقال : ومع ذلك فان منظرها جميل يصور بعض ما تركه لنا القدماء من آثار الفن .

ولم تنصرف الصبية بسراجها وانما ظلت فى مكانها حتى مد يده الى سلسلة تضطرب فى الجو فجذبها اليه فى شىء من العنف ،

حتى اذا هبط اليه المصباح المعلق فى السقف اضاءه ورفعه ، وقال للصبية انصرفى الآن وعشينا ان كان عندك طعام .

ثم جلس منى غير بعيد واشار الى غلامى الاسود الصغير ان استروح حيث تشاء ، وبدأ حديثه معى فى لهجة الحازم الجاد . فقال : والان يا سيدى يجب ان تدع اللغو فما جئنا هنا لنلغو ولا لنلهو ، وان نأخذ فى الجد فالمجد وحده اقبلنا ، فحدثنى من انت ، وساحدثك من انا حتى اذا عرف كل منا صاحبه اخذنا فيما ينبغى ان نأخذ فيه . قلت : فانك تنظم الامر كما تحب ، تتحكم فى ذلك تحكما غريبا ! لاتسألنى عن شىء ، ولاتستشرنى فى شىء ، فانى لم اطلب اليك ان اجىء الى هذا المكان ولا ان آخذ معك فى لغو او جد . قال مقاطعا فأنت لا تريد اذن أن تحدثنى عن نفسك حتى احدثك عن نفسى . فساحدثك عن نفسى ولكن بعد ان اتبئك انى اعرفك حق المعرفة وكنت خليقا أن تعرفنى لولا أنك حديث السن .

ثم قص على من امرى ماكنت اظن انه ابعد الناس عن العلم به ولكنى لم ادهش لذلك حين ذكر لى اسمه وتحدث الى عن اسرته وانبأنى بانه من هذه القرية التى ليس بينها وبين مدينتنا الا ساعة او بعض ساعة للذين يمشون على الاقدام ، وانه قد نشا فى مدينتنا او اكثر التردد عليها حتى كانه نشا فيها ، وانه قد تعلم القراءة والكتابة فى نفس الكتاب الذى تعلمت فيه ، وقد عرف اخوتى الذين سبقونى اليه ، وقد ظلت المودة متصلة بينه وبين بعضهم حتى تركت اسرتنا هذه المدينة الى اقصى الصعيد . وحتى هبطنا نحن الى القاهرة نطلب العلم فى مدارسها المختلفة .

منذ ذلك الوقت تقطعت الاسباب او رثت بينه وبين من كان يود من اخوتى ، يسألنى عنهم واحدا واحدا ، وانا اجيبه ثم أسأله عن نفسه كيف تعلم وماذا يعمل الآن ؟ فينبئنى بأنه اتم درسه الثانوى منذ اعوام ، واتصل بوزارة الاشغال يعمل فيها كاتبا فى بعض الدواوين يختلف اليها وجه النهار ، ويعكف

اخر النهار وجزءا غير قليل من الليل على القراءة والدرس حتى كلف بهما اشد الكلف ، واصبح عمله فى الوزارة وسيلة آلية ، على حين هو عند أترابه من الشبان غاية لا يلتمسون غيرها غرضا من اغراض الحياة

ولم يكد يتقدم الحديث بيننا فى هذه الشئون حتى اقبلت الخادم تزيل ما على المائدة من كتب لتهيئها للاطباق وآنية العشاء . وقد زالت الكلفة بيننا واخذت اسمع منه واتحدث اليه كما يكون الامر بين الفين قد بعد العهد بما بينهما من المودة والحب والمخالطة ، فليس بينهما تصنع ولا تكلف ولا عناية بما يقولان .

وما هى الا لحظات حتى كنا نلهو ونضحك من ذكريات لم نلبث ان وجدناها مشتركة بيننا وكلها متصل بحياتنا فى الريف

قال لى فى بعض ما كان يقول وقد هدأ نشاطه وانخفض صوته ورقت لهجته ، وجعل يتحدث الى كأنما يهمس همسا وكأنما يصدر صوته عن نفس متأثرة أشد التأثر ، وقلب يملؤه الود والحنان ، ولو انى استطعت ان أرى وجهه فى تلك الساعة لما شككت فى انى كنت خليقا ان أتبين فيه مظاهر التأثر وآيات الحنان .

قال لى فى هذا الصوت العذب « هبنى فى القرية ، وهبك فى المدينة ، وهبنى اريد ان ازورك لاقضى معك شطرا من النهار ، فاين القاك » ؟

قلت : « انما يزار الناس فى دورهم » . قال : فانى لااريد ان ازورك لانى لا اريد كلفة ولاحرجا ، ولا تقيدا بهذه الاوضاع التى يتقيد بها الناس ، ولا سيما الشباب والصبية ، حين يتزاورون فى الدور ، حيث الاباء والاخوة الكبار ، انما اريد ان القاك حرا ،

طلقا ، لا تحسب حسابا لشيء ،ولا لاحد ، واحب ان تلقى عن راسك هذه العمة الثقيلة التى تضطرك الى وقار لا احبه لك ، ولا ارضاه منك ، وان تخرج من هذه الثياب التى لا يلبسها الا الشبان الذين تقدمت بهم السن الى ضحوة الشباب ، فانت فى آخر ليل الطفولة ، وفى اول فجر الشباب . قد اخذت نفسك تتفتح للحياة وتبتسم لها ، وتخرج من غفلة الطفولة وتحاول أن تقدر اشياء ، وان تزنها وان تحكم عليها فى هذا الغرور الجميل اللذيذ ، الذى يخيل الى الغلمان انهم رجال ، ويلقى فى روعهم ان آراءهم موفقة دائما ،وأن أحكامهم صائبة دائما ، وان الكبار من الرجال يخطئون ، حين يسيئون الظن بهم ، ويرونهم صغارا ، ولا يشركونهم معهم فى كبار الامور .

ألق اذن هذه العمة ، واخرج اذن من هذه الجبة ، ومن هذا القفطان ، وعدالى ثوبك الفضفاض الذى كنت تلبسه قبل ان تهبط الى القاهرة ، والذى كان يمتاز من ثياب اترابك من اهل الريف بضيق كميه وتكسرهما بعض الشيء عند اخرهما ، وبهذا التكسر المنظم على الصدر ، وفى اعلى الظهر وبهذا الحزام العريض الذى كان يتصل به عند الخصر ،ولكنه لا يحيط بالجسم كله وانما هى قطعتان قد خيطتا على جانبى الثوب من يمين وشمال ، ثم وصلت احداهما بالاخرى أزرار من الصدف . عد الى هذا الثوب وضع على راسك ذلك الغطاء الرقيق الابيض الذى يسمونه الطاقية وما هو بالطاقية وانما هو شيء يصطنعه المترفون من اهل المدن فى الاقاليم يقلدون به بعض قلانس الفرنجة ويسمونه الطاقية الافرنجية

عد الى هذا الزى ، وسأخرج أنا من هذا الزى الاوربى وأعود الى الزى الذى كنت أصطنعه فى الريف حين لم أكن أذهب الى المدرسة فأدخل فى ثوب من الصوف ، مفتوح الصدر ، وأتخذ على رأسى الطربوش ، كما يفعل المترفون من أبناء العمد ، فأنت تعرف انى ابن عمدة وسأزورك ماشيا لاأركب لهذه الزيارة فرسا

ولا حمارا ، لانى أريد أن أكون حرا طلقا ، وأن أقضى معك وقتا لا يشغلنى فيه التفكير فى فرس أو حمار .

عد الى زيك القديم وسأعود الى زيى القديم وأنتظر أن أزورك وحدثنى أين ألقاك، على ألا يكون اللقاء فى بيتك فأنا أعرفه حق المعرفة ، ولا أريد أن أجلس فى المنظرة ، ولا أريد أن أجلس فى ظل هذه الصنبات التى تقوم الى جانبها ، ولا أريد أن ألعب فى هذا الفناء ، الذى ينبسط أمامها والذى ترونه واسعا وأراه ضيقا، والذى يحب أبوك أن يجلس فيه اذا كان العصر ، والذى يؤثر سيدنا أن يقرأ فيه القرآن كل يوم قبل أن تطلع الشمس

انما أريد لقاء حرا ، فى مكان حر ، ليس فيه رقيب يسمع لنا اذا تحدثنا ، أو يسألنا أين تذهبان اذا أردنا أن نمضي أمامنا وألا نلزم مكانا بعينه

قلت وقد أثر فى نفسى حديثه وصوته ولهجته وما أثار من الذكرى ، فرجعت الى ذلك الطور الذى كنت فيه حين فارقت المدينة لاهبط الى القاهرة ، ورجعت الى ذلك الزى الذى وصفه والذى كنت أعود اليه كلما عدت الى الاقاليم

قلت : فستلقانى اذا فى طريقك جالسا أمام دكان الشيخ محمد عبد الواحد ، على أحد هذين الصندوقين اللذين يكتنفان الدكان عن يمين وشمال، واللذين يجلس عليهما الناس لينفقوا بعض الوقت فى الحديث وفى النظر الى من يأتى من الغرب ، أو من يذهب اليه ، والى النساء وهن يذهبن الى الابراهيمية ليملان جرارهن ، ويعدن منها وقد أثقلت رءوسهن هذه الجرار وهن يتحدثن همسا بينهن أثناء النهار ، كما يتغنين جماعة حين يغدون مع الصبح ، أو فى الاستماع الى حديث هاتين المرأتين اللتين تكتنفان الدكان عن يمين وشمال، الا أن احداهما تلاصقه والاخرى قد أقامت دارها فى الناحية الاخرى من الشارع . أتعرفهما؟ قال : كما تعرفهما ، فأما الاولى فزنوبة ، وأما الاخرى فأم محمود كلتاهما تجلس على باب دارها وتتحدث الى صاحبتها ألوان

الحديث ، فى صوت مرتفع ، فيه عبث ودعابة ولين ، وشباب المدينة يكلفون بالجلوس عند الدكان ليسمعوا لحديثهما وليدخلوا فيه من حين الى حين ، حين يكون الحديث دعابة ، وما أكثر مايكون الحديث دعابة بينهما، فهما لا تحسنان فى الحياة الا الدعابة وكسب المال . قلت : فستلقانى جالسا على أحد هذين الصندوقين ، فقد تعودت أن أقضى وجه النهار مع صاحب الدكان وأخيه . أتحدث مع أولهما فى أخبار الشيخ ماضى وآثاره وكراماته ومقاماته ، وأسمع من ثانيهما ما يقرأ على من كتب القصص والوعظ ، لاينقطع حديثنا ، ولا تنقطع قراءتنا الا حين تأتى امرأة أو فتاة لتشترى بعض الملح ، أو الفلفل أو الخيط ، أو مايباع عندهما من سقط المتاع .

قال : فقد انحدرت اليك من المغرب ، ولم أكد أهبط من الجسر حتى مررت بهذه الدور التى تعرفها فحييت حسن كوزو وهو جالس أمام داره ومن حوله امرأته وبناته وأبناؤه ، وهم يلغطون لغطهم المتصل ثم مررت بدار عم حسنين ، ولم ألقه من حسن الحظ ، فلو قد لقيته لاستوقفنى ولسألنى : فيم أقبلت ؟ وكيف تركت أبى ؟ وما بال أبى لاينحدر الى المدينة ؟ وماأشك فى أنه كان سيستبقينى ولعله كان يلح على فى أن أتغذى عنده فهو حريص على أن تتصل المودة بينه وبيننا ، ولكننى جزت الدار سالما لم ألق أحدا ولم أتعرض لهذا الاكرام الذى كنت أخشاه وقد رأيتك من بعيد وتبينت أنك لم تكن تتحدث الى صاحب الدكان ولا تسمع لقراءة أخيه ، انما كنت معتزلا على صندوقك ، قد انثنى اعلاك على اسفلك ، وقد وضعت رأسك بين يديك ، والناس من حولك قائمون ، منهم من يشترى ، ومنهم من ينظر ، ومنهم من يمنح طرفه زنوبة ، ومنهم من يمنح طرفه أم محمود ، وهذا الشيطان المارد ابن العمدة ، يذهب فى الشارع ويجىء ، متحدثا متفنيا ، يلقى نظرة خلسة الى هذه الحارة عن يمين الدكان ، حيث يقيم سيدنا وامرأته الشابة ، وحماته العجوز ، وحيث تقيم عالية أم غريب .

وهانذا انتهى اليك فأضع يدى على كتفك ، وها أنت ذا تذعر لمكانى منك ، ولكنك لاتكاد تسمعنى أحييك حتى تطمئن الى وتبتسم لى ، وتدعونى الى الجلوس ، ولكنى ابى ذلك عليك ، وأنهضك وآخذ بذراعك ثم نندفع معا فى هذا الشارع الذى يكاد يواجه بيت زنوبة ونمضى معا الى القناة .

أنظر ها نحن هذان قد بلغنا القناة ، فاما عن يميننا فحديقة جرجس أفندى ، ثم المنحدر الى بيتكم ، واما عن شمالنا فخيام العرب الذين اختاروا هذا المكان مضربا لخيامهم ، والذين يخفرون هذا الطرف من أطراف المدينة ، الى أى الوجهين تريد أن نمضى أتريد أن نمضى الى يمين لنبلغ المدينة أم تريد أن نمضى الى شمال نحو المغرب لنبلغ الابراهيمية ، فنأوى الى ظل شجرات التوت ، أو نمضى امامنا فى هذه الحقول التى لاتكاد تنتهى . أم تريد أن نعبر القناة فليس عبورها شاقا ولا عسيرا ، فهى جافة فى هذه الايام ، ألست تحس من حولك هؤلاء الصبية ، وهم يلعبون فيها ، ويلتمسون ماتخلف فى طينها من صغار السمك ؟ الى أين تريد أن نمضى ؟ اننا ان عبرنا القناة ، لم نمض غير قليل فى هذا الفضاء الواسع الطلق حتى نبلغ الخط الحديدى ، فاذا عدوناه فقد انتهينا الى المدينة من طريق قريبة . الى اين تريد أن نمضى ؟

وما أرانى محتاجا الى أن أسمع منك جوابا . فأنت تريد من غير شك وأنا ايضا أريد أن نأخذ طريقنا عن يمين فانها يسيرة مألوفة ، وهى طريق الناس حين يأتون من المدينة أو يذهبون اليها ، وهى خليقة أن تقدم لنا من ضروب اللهو والوان العبث والمتاع مانبتغى . فليس بيننا وبين حديقة المعلم الا خطوات . ها نحن هذان قد بلغناها . وآثرنا أن نميل اليها فنجنى من ريحانها ، ونقتطف من أثمارها ، ونستظل بأشجارها ساعة لنتحدث فيما تعودنا ان نتحدث فيه ، انها لجميلة هذه الحديقة لم تتخذ زينة ، ولم يعمل فيها المنسقون ، وانما هى حرة مطلقة ! ينبت فيها الزهر والشجر كما يريدان فى غير قيد ولانظام ، وانها لجميلة حين تتقدم فى رشاقا

وخفة بما تحمل من زهر وثمر ، وورق نضر واغصـــان لدنة الى القناة ، كأنها تريد ان تهدى هذا كله الى هذا الماء حين يجرى فيها قويا هادئا موفور النشاط مع ذلك كأنه انه شاب من آلهة الاساطير .

أنا أعلم انك تحب هذه الحديقة وتجد لذة فى أن تخلو فيهـا الى نفسك فتقص عليها ماتتصور من الاحداث والخطوب ، أو تعيد عليها ماتسمع من القصص والاحاديث . وما مات بك اليها الا لانى اعلم انك تحبها وتؤثر أن تقضى فيها ساعات بعيدا عن الناس ، قريبا منهم فى وقت واحد . أنا أعلم انك لاتحب العزلة الخالصة ، ولاتحب الخلطة الخالصة ولـكنى احس الان كأن مكانك ينبو بك ، وكأنك لاتطمئن الى الحديقـــة او كأن الحديقة لاتريد أن تتلقاك بمـــا تعودت ان تتلقـــاك به من البشر والانس والحنان .

أحس ان جســمك كله يضطرب كأنه يكره السكون ، ويدفع الى الحركة دفعا . ماذا تنكر من هذه الحديقة ؟ أو ماذا تنكر منك هذه الحديقة ؟ لم لاتريد أن تخلو الى كما تخلو الى نفسك ، وان تقص على كما تقص على نفسك ماتعيده عليك الذاكـرة او مايخلقـه لك الخيال . ها أنت ذا أشـبه شىء بالجـواد الجموح الذى يعض شـــكيمته ، ويضـرب الارض بسنابكه ، ويكاد يخرج من جلده مرحا وشوقا الى العـدو . الى أين تريد ان تمضى ؟

وهو يقول هذا كله فى لهجة جد واقتناع ويقـين حتى ينسـينى مكانى منه ، ومكانه منى ، ومكاننا من القاهرة ، وحتى يقنعنى بأننا صبيان ، أو شابان نقصـد الى النزهة فى ريفنا ذلك البعيد ، وقد سمعت منه ، وآمنت له ، وهممت أن أجيبه ، ولكنه منطلق لايريد أن يقف ، متدفق لايريد ان يهدأ يسأل ولا ينتظر الجواب ، وانما يجيب وهو يمضى فى حديثه لايلوى على شىء ، وأنا أسمعه وأتبعه ، وهو يسرع فى الحديث ، وكأنه يسرع فى الحركة ، حتى يعيينى سماعه ، ويعجزنى اتباعه . ولكنه ماض فى حديثه ، ماض فى حلمه ، لايقف عند شىء ولايأوى على شىء . والغريب انه كان يتحدث فيثير فى

نفسي مثل ما يثير في نفسه من الذكرى . ثم يتحدث عني وعما أحب فكأنما أنا اتحدث عن نفسي .

قال : فانك لاتريد البقاء في هذه الحديقة لان نفسك لاتتهيأ للخلوة ولا للحديث الهادىء المطمئن ، وانما انت اليوم مهيأ للحركة والنشاط الجسمي ، وما أرى انك تستريح حتى تكلف نفسك بالمشي جهدا ثقيلا ، ولولا انك شديد الحياء ، وانك تخشى المصاعب والعقبات ، لآثرت العدو ولكلفت بالجري السريع . فهلم الى الطريق العامة فليس لك في هذه الحديقة أرب منذ اليوم .

هلم وليكن مشينا سريعا يشبه العدو ، ولكنك لم تطاوعني الا قليلا وهأنا ذا أحس ان قدميك تثقلان وان نشاطك ينال منه الفتور ، وانك تؤثر مشيا رزينا هو الى التلكؤ ادنى منه الى الجد والسرعة . لقد فهمت ان مكانك من هذه البيوت الاربعة التي تنتظم على شاطىء القناة في نسق بديع وقد امتدت امامها حدائقها الواسعة ذات الشجر الملتف والاغصان المتدلية على الاسوار .

وأنت تريد أن تسعى سعيا هينا الى جانب هذه الاسوار ، وان تداعب بيدك هذه الاوراق الخضر النضر لانك تجد في مسها راحة ولذة ونعيما لنفسك وهدوءا لقلبك الذي قلما يظفر بالهدوء .

تريد أن تقف وان تعبث بهذا اللبلاب الذي يتلوى على سور المأمور ، تريد ان تداعبه وتلاعبه وتقوم اعوجاجه وتصلح التواءه ، ولكنك تعلم انه لايستقيم ، ولايحب الاعتدال . ثم انت تريد ان تطيل الوقوف عند بيت الملاحظ . وماأظن الا أن نفسك تنازعك الى ان تطرق الباب ، وتدعو عثمان يدعوك الى الدخول لتتحدث اليه احدهما أن يستجيب لك وان او محمودا . فمن يدري ! لعلك او اليه والى أخيه ساعة من نهار . انك لشديد المكر ، وان نفسك لشديدة الالتواء . لم تكذب على نفسك وتكذب علي ؟ انك لاتريد عثمان ، ولاتحب الحديث الى محمود ، وانما تريد ان تدخل الدار وتقطع اليها هذه الحديقة العريضة متلكئا بعض الشيء ،

متكلفا بعض الاناة والمهل . حتى اذا بلغت الدار وأجلست فى هذه الحجرة المتواضعة التى لاتمس القدم فيها أرضا عارية كالتى تمسها حيث تلعب فى بيتك او حيث تجلس عند الدكان ، وانما تمس ارضا قد رصفت بالحجارة وفرشت عليها البسط ، وهناك فى هذه الحجرة لاتلقى الى صاحبيك الا احدى اذنيك ، او بعض ما تستطيع أن تلقيه منها . فأما اذنك الاخرى فمرسلة الى آخر الدار ، ومعها نفسك كلها . قل الحق . انك لاتريد عثمان ولا يبتغى الحديث الى محمود ، وانما تريد ان تسمع احد هذين الصوتين اللذين تشيع فيهما العذوبة كما تشيع النضرة فى الغصن المورق اللدن . بل انت أسعد الناس أن أتيح لك الاستماع الى الصوتين جميعا .

أيهما آثر عندك وأحب اليك ؟ صوت هذه الفتاة الناهد التى تسمى عزيزة والتى توشك ان تلعب معك ومع اخويها لولا ما تأخذها بها امها التركية وابوها الالبانى من تكلف الوقار والاحتشام . فهى تجلس اليكم وتسمع منكم وقد تشاركم فى الحديث ، وقد يضحكها ماتخوضون فيه ، فاذا ضحكها يضطرب فى الحجرة مشرقا صافيا مضيئا كأنه البلور . أم صوت اختها امينة هذه التى نيفت على العشرين ، وجاوزت طور اللعب ، وتزوجت ثم طلقها زوجها فعادت الى اسرتها كئيبا محزونة هادئة الصوت ، ولكن صوتها الهادىء يثير فى قلبك وجلا ، وفى نفسك اضطرابا ، وفى اعماق ضميرك قلقا لاتتبين اصله ، ولا سره ، ولكنك تخافه وتحبه معا . اى الصوتين آثر عندك واحب اليك ؟ انى لاخشى ان تكون فاجر النفس ماجن القلب ، مسرفا فيما تتيح لضميرك من حرية . انك لتحب الصوتين جميعا ، وتألف الاختين جميعا ، وتحب لهن تنعم ما وسعك النعيم بما تثيران فى نفسك من هذه العواطف الحادة المبهمة الغامضة ، وانك لتسمع لهما اذا تحدثتا او ضحكتا او جاءتا بشىء من الحركة

فتعمى عنهما هذا كله ، وتسجله في نفسك تسجيلا حتى اذا عدت الى دارك ، وآويت الى مكانك الذى تعودت أن تعتزل فيه ، اخذت تعيد فى نفسك ماسمعت من كلام ، ومن ضحك ، ومن غناء ، واخذت تتخيل ما احسست به من حركة ، واخذت تتعمق هذا كله وتستخرج منه صورا ومعانى وعواطف وخواطر ، لاتحصى ولاتستقصى ولكنها تنسيك نفسك واهلك ودارك وتنتهى بك الى عالم غريب هو احب اليك الف مرة من هذا العالم الذى تعيش فيه . قل الحق ! ألست اصور ماتجد ، واقص ماتحس ، واحدثك بما تحب أن اتحدث اليك فيه ، ولكنك قد اطلت الجلوس بين عثمان ومحمود ، والاستماع لعزيزة وامينة ، وهذا صوت المؤذن ينتهى الينا داعيا الى صلاة الظهر ، وسيقبل الملاحظ بعد وقت قصير ، ولئن بقينا لندعين الى الغداء ، وانا اعرف ان حياءك وادبك يأبيان عليك ان تستجيب لهذا الدعاء ، وان نفسك تنازعك الى البقاء . وما أظن الا انك لو ارسلت نفسك على سجيتها لاقمت ، ولاحتملت ساعة الغداء هذه الثقيلة لتستمتع بعدها بساعات طوال ، تنعم فيها بهذين الصوتين وما فيهما من فتنة وروعة وحنان . ولكن لاسبيل الى الاقامة . وماذا نصنع بحيائنا ؟ وماذا نصنع بأدبنا ، وكيف تلقى امك ؟ وكيف تجيبها ؟ وكيف تثبت لومها العنيف حين تصور لك ان الفتيان الذين يحسن ادبهم لايبقون فى الزيارة الى ان يدركهم الغداء ، ولايستجيبون الى الطعام ، اذا لم تسبق دعوتهم اليه .

هلم أيها الصديق البائس الحزين ودع امينة وعزيزة ، فقد يتاح لك ان تراهما اذا كان الغداء او اذا كان المساء . فأما الآن فصدقنى ليس لنا فى هذه الدار مقام .

أما الآن وقد تجاوزنا عتبة الدار ، واغلق من دوننا الباب ، ورجع عثمان ومحمود ادراجهما فى الحديقة واستقبلنا القناة ، فوقفنا على شاطئها لحظة مترددين ، أنعود الى حيث كنا

بعد ان تقدم النهار ؟ أم نمضي عن يمين الى المدينة وان عرضنا ذلك لشيء غير قليل من اللوم .

ثم آثرنا اللهو والعبث فأخذنا طريقنا عن يمين نحو الخط الحديدي نسعى هادئين . اما الآن فانى احمد جدك وحزمك وشجاعتك واصرارك على ان تنصرف حين هممنا بالانصراف ، وابائك على عثمان ومحمود وابائك بنوع خاص على عزيزة وامينة ، وقد كانوا جميعا يلحون علينا فى ان نبقى ويرغبوننا فى البقاء ، يعرض عثمان ومحمود علينا ان يظهرانا على ماعندهما من اعاجيب القاهرة ، هذه اللعب التى لا تنتشر فى الريف ، ولا يألفها اهل الاقاليم ، وتعرض علينا عزيزة الغزف على البيانو . وتعرض علينا امينة القراءة فى بعض القصص ، وانت مصمم على الانصراف برغم نفسك التى كانت تنازعك الى البقاء نزاعا شديدا .

على انى لا أفهم كلفك باستماع لعزيزة وأمينة ، وافتتانك باحاديثهما هذه التى يلتوى فيها لسانهما بلهجة أهل القاهرة فى تانق وتكلف وتعمد للفتنة ، كأنما تريد كل واحدة منهما ان تدل على نفسها ، وتنبهنا الى انها ليست منا ، والى اننا لسنا منها فى شيء ، انما هى من هذا العنصر الممتاز الذى لاينطق الجيم كما ننطقها ، ولايحول القاف كما نحولها الى جيم غليظة وانما يحياها الى همزة رقيقة خفيفة حسنة الموقع فى الاسماع ، ولايمتلىء فمه بالكلام يهدر به كما تهدر الابل ، وانما يضيق به ويتلطف فى ارساله ويجريه هادئا حلوا رقيقا ، فيخرجه احسن مخرج ، ولا يلقيه كما نلقيه نحن القاء الجنادل والصخور . لايعجبنى شيء من هذا لانى اراه تكلفا وتصنعا . ومن يدرى لعلنا ان رأيناهما فى القاهرة ، واستمعنا لهما فى بيئتهما الطبيعية ان نجدهما اقل تكلفا وأدنى الى الفطرة ، ولعلهما يومئذ ان تجدا الى نفسى الغليظة سبيلا . اما الآن فان قلبى مغلق دونهما اغلاقا ، وانى لأوثر ألف مرة عليهم فتياتنا الريفيات ، وما يمتزن به من حياء حلو وخفر ناعم ، وحديث عذب على غلظته ، وصوت محبب الى النفوس على

مايضطرب فيه من بعض الجفاء ، ستغضب وستثور وستنكر ذوقي اشد الانكار ولكني لاأتردد مع ذلك فى أن اعلن اليك انى اوثر كلمة بنت عالية واخت غريب ، على عزيزتك هذه المتكلفة المتصنعة . وأوثر خديجة بنت محبوبة واخت على ، على اميتك هذه التى ترى أن ليس على الارض امرأة تعدلها او تدانى حظها من الرقة والجمال .

انى من أنصار الحسن الطبيعى الذى لايجتلب ، ولايشترى ، وانما تخلعه الطبيعة وتفيضه على الوجوه والنفوس ، هذا الحسن الذى تحدث عنه المتنبى . اتذكر بيته ؟ انه مشهور :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفى البداوة حسن غير مجلوب

٦

وكان هذا البيت من شعر المتنبى قد ايقظ صاحبى من نوم عميق ، ورده من هيام بعيد ، ونبهنى انا الى مكانى منه ، والى مكانه منى . فما كان لشابين جاهلين من شباب الريف ان يديرا بينهما مثل هذا الحديث ، او يذكرا مثل هذا الشعر . واين حديث الريف الساذج اليسير الذى لافلسفة فيه ولاتعمق من هذا الحديث الطويل الذى اندفع فيه صاحبى كأنه السيل لايرده شيء ، والذى اخذ يتكلف فيه ماتكلف ، ويصطنع فيه ما اصطنع على غير شعور من الفلسفة والتعمق والدقة فى التفكير والتعبير . فلما سمع صوته ينشد هذا البيت ثاب الى نفسه ، وثبت أنا الى نفسى واليه ، فلبث دقائق صامتا لايقول شيئا كأنما كان يستجمع قواه المفرقة ، ويدعو اليه نفسه الشاردة ، وينتظر ان يعود اليه عقله وقلبه من مدينتنا تلك فى الريف ، فلما استجمع من ذلك كله ماكان يريد قال فى صوت هادىء عميق : اين أنا ، وماذا كنت أقول ؟ ثم ارسل ضحكته العريضة المخيفة ونهض قائما وهو يقول : أما اننا قد طعمنا حتى اكتفينا . هذه الصبية البلهاء قد

اقبلت فوضعت طعامنا على المائدة ولم يخطر لها ان تدعونا اليه ، كأنما ظنت الحمقاء انى رأيتها او سمعتها او احسست مقدمها وكأنما لم تشعر انا كنا غائبين نسعى فى مدينة من مدن الريف ، وهذا خادمك الاحمق قد جلس على كرسيه عند باب الغرفة وهو يغط معنا فى نومه العميق كأن أحاديثنا لم تعجبه ولا تروقه ولا تصل الى نفسه الغليظة المحجبة بحجب الجهل والجفوة والغفلة. ثم ثاب الى ووضع يده على كتفى وهو يقول : وانت ماذا أحسست من هذا الحديث ؟ ولم يمهلنى ، ولم ينتظر منى جوابا ، وانما اندفع يقول ما أرى الا انك ظننت بى الجنون واخذت تسأل نفسك اين أنت ، وتمقت الساعة التى لقيتك فيها وتلوم نفسك لانك طاوعتنى واستجبت لدعائى ، وتشفق ألا تتاح لك العودة الى أخيك . ومن يدرى! لعل المتنبى قد أنقذك حين جرى هذا البيت من شعره على لسانى فردنى الى نفسى واليك ، ولعلك ان بقيت تسمع لى وأنا امضى فى هذا الهذيان كنت مضطرا الى ان تنتهى اخر الامر الى الهلع والجزع ثم الى الاستغاثة والصياح ، ومع ذلك فثب الى نفسك وامنحنى بعض عنايتك وحدثنى : أليس هذا فنا من الشعر ونحوا من النحائه ؟ لاتظن ان القدماء من الشعراء كانوا يصنعون شيئا غير هذا حين كانوا يقفون ويستوقفون على الاطلال والديار ؛ وحين كانوا يذكرون ويذكرون بمن كان يقيم فيها ثم ارتحل عنها من الاحبة والاخلاء ، وحين كانوا يتبعون الظاعنين ويصفون ماسلكوا من طريق ، وما عرض لهم فى سفرهم من خطوب ، وما أنضوا من ابل وما وردوا من ماء آجن وما انتهوا اليه من مرعى. انما كانوا يصنعون مثل ما صنعت ويهيمون مثل ماهمت ، وينسون انفسهم كما نسيت نفسى ، ويرسلون قلوبهم كما ارسلت قلبى على جناحى هذا الطائر الخفيف الرشيق الذى يحسن الاسراع ويحسن الابطاء ويحسن المضى ويحسن الوقوف وهو الذكرى .

وحدثنى أفهمت شيئا من حنين القدماء على وجهه حين قرأت ماقرأت من شعر امرىء القيس ، وغير امرىء القيس من

هؤلاء الذين كانوا يحسنون الذكرى ويجيدون تصوير الوفاء . انما هى عندك ألفاظ تقع فى اذنيك كما يقع غيرها من ألفاظ ، تفهم الظاهر من معانيها ، فان أعجزك الفهم سألت كتابا من كتب اللغة فلا ينبئك الا بظاهر من معانيها . تكاد هذه الالفاظ تتجاوز اذنيك الى عقلك فضلا عن أن تتجاوزها الى قلبك والى ضميرك فتثير فيهما عاطفة او هوى او ميلا ، وتدعوك الى أن تقدر الحياة كما ينبغى ان تقدر الحياة . صدقنى انكم لاتدرسون الشعر ولاتدرسون الادب ، وانما تدرسون الفاظا ومعانى وصورا ليست من الشعر ولا من الادب فى شىء .

قلت وقد اعجبنى حديثه وارضتنى آراؤه ، ولكنى على ذلك ضقت بهذا السيل الذى لايقف ، واشفقت من ان يمضى فيه كما مضى فى الذكرى آنفا ، ومن ان ننفق بقية الليل كما انفقنا أوله ، واشفقت بنوع خاص من ان يلهينا هذا الحديث المتصل والسيل المتدفق عما نحن فى حاجة اليه من التفكير فى العودة الى بيتى ، فما أشك فى ان غيبتى قد طالت ، وفى أنها ستطول ، وفى انها ستلحظ ، وفى انى سأسأل عنها اذا كان الغد .

قلت ضاحكا : فما يمنعك ان تعلن آراءك هذه الى الناس فى صحيفة من الصحف او فى محاضرة من المحاضرات ، بل مايمنعك ان تلقى على الناس دروسا فى الادب ، فيسمع لك الشباب ، وسينتفعون بما تلقى اليهم من حديث ؟ ثم مايمنعك أن تمضى معى فى هذا الحديث أثناء العشاء ، وبعده وأثناء الطريق مادمت قد ضمنت لى أن تصاحبنى الى بيتى البعيد قال وهو يضحك ضحكا غليظا : قل مايمنعك أن تكف عن هذا اللغو وأن تأخذ فى الجد فقد زعمت لى أننا لم نجتمع هنا لنلغو وانما اجتمعنا لنجد

وهذا حق ، فما فى شىء من هذا كنت أريد أن أتحدث اليك ، وما الى شىء من هذا دعوتك الليلة ، وانما هو تعارفنا وتحدثنا عن الريف قد شط بى ودفعنى الى الاستطراد ، فلنعد اذا الى ما كنا نريد أن نأخذ فيه ولنقبل على طعامنا قبل كل شىء

وأخذنا فى حديث جديد لم يصرفنا عن الطعام ، ولكنه لم يعجل عودتى الى بيتى ، فقد كان الجد الذى يريده صاحبى انه يجب أن يكون بينه وبينى تعاون فى الدرس : يعلمنى بعض ماعنده ، وأعلمه بعض ماعندى . فهو يرى أن أمرى فى الجامعة لا يستقيم الا اذا تعلمت لغة أجنبية وألممت ببعض هذه العلوم التى كنا نجهلها فى الازهر جهلا تاما ، والتى كان جهلنا اياها يخيل الى والى أصحابى أننا نسمع من المحاضرين فى الجامعة الاعاجيب مع أننا لم نكن نسمع منهم الا أيسر الاشياء وأهونها .

وهو كان يريد أن يمنحنى من ذلك ماينقصنى ، لا يسألنى على ذلك أجرا الا أن أعوده معاشرة كتب الازهر ، والتصرف فى علم الازهريين وكانت علوم ثلاثة من علوم الازهر تخلبه وتشوقه بنوع خاص ، وهى المنطق والفقه والاصول . فأما المنطق فقد كان أمره يسيرا ، وكنت أرى أنى أستطيع أن أقرأ معه كتابا من كتبه المختصرة . وأما الفقه والاصول فقد كان أمرهما أعسر من ذلك وأشق . وأنى لى أن أعلمه علما لا أحسنه ، وما أظن أنى سأحسنه فى يوم من الايام؟ وهو مع ذلك مصمم على أن يدرس المنطق والفقه والاصول وعلى أن يعلمنى الفرنسية ، ويقرأ معى ما أحب من التاريخ وما أشاء من هذه الكتب التى لابد من قراءتها لمن يريد أن يعيش فى هذا العصر الحديث عيشة لا غرابة فيها . وكان حوارنا طويلا شاقا ملتويا فيه كثير من الاستطراد حتى لقد انصرفنا من داره وقد كاد يسفر الصبح . وما كدنا نبلغ حينافى أقصى الجمالية حتى سمعنا المؤذن ينبىء الناس بأن « الصلاة خير من النوم » ، وكنا لم ننم فعدنا أدراجنا وفى ذلك اليوم جلس معى الى أستاذ الاصول رجل ليس على رأسه عمامة بل على رأسه طربوش .

وافترقنا بعد الدرس على أن نلتقى فى الجامعة كل يوم اذا كان المساء . وعلى أن نرتب أمرنا بيننا ، يعلمنى الفرنسية وأعلمه

المنطق . ومن ذلك اليوم لم نفترق حتى أتيح له أن يسبقني الى باريس .

كنا نلتقي في قهوة بشارع قصر النيل قريبة من الجامعة قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر من ساعة ، فنأخذ في أحاديث مختلفة ، وكثيرا ما كان يشاركنا في أحاديثنا بعض الطلاب حتى اذا أقبلت ساعة الدرس نهضنا اليه . أما هو فكان ينهض متثاقلا دائما ، وأما أنا فكنت أنهض خفيفا شديد النشاط . وكان يضحك من خفتي . وكنت أضيق بتثاقله ، وكان يقول لي هون عليك فلبأنين يوم تنصرف فيه عن هذه الدروس انصرافا ولم أكن اذا دخلنا غرفة الدرس أفر من مجلسه ، ولم يكن ينغص على الاستماع للاستاذ ، حتى اذا انتهينا من الاستماع انصرفنا الى داره أو الى قهوتنا في شارع كوبري قصر النيل فزعم لي انه يعلمني الفرنسية ، وزعمت له انى أعلمه المنطق ، والحق أننا لم نكن نصنع من هذا شيئا ، وانما كنا نمضي في لغو مختلف متصل كهذا الذي صورت بعضه آنفا . وكنا ننفق في هذا اللغو خير أجزاء الليل ، ثم نفترق . فأما هو فكان ينفق بقية الليل في القراءة أو الكتابة ثم في نوم قليل ، ثم يصبح فيغدو على ديوانه . وأما أنا فكنت أنفق بقية الليل في تفكير طويل مضطرب لا يكاد يذيقني النوم الا غرارا ، فاذا دعا المؤذن الى الصلاة أسرعت الى الازهر ، وقضيت وجه النهار مستمعا للاساتذة أو دارسا مع الطلاب حتى اذا أقبل المساء التقينا كدأبنا في كل يوم .

وانقضى العام الاول والثاني والثالث من حياتنا في الجامعة على هذا النحو ، لم يتقدم هو في درس المنطق ولم أتقدم أنا في درس الفرنسية ، ولكننا تقدمنا في ادارة هذه الاحاديث الطويلة المختلفة التي تلم بكل شيء ولا تكاد تتقن شيئا ، ولكنها تفتح القلوب لالوان من العواطف وتهيىء النفوس لضروب من الخواطر ، وتغير الطريق التي كان كل واحد منا قد رسمها لنفسه في الحياة .

كان يريد أن ينفق حيـــاته موظفا يثقف نفسه ثقافة جديدة في كل يوم ويلتمس لذته في القـراءة والكتابة والحـديث . فأصبح أشد الناس بغض الديوان وزهدا في عمله ، ورغبة في أن يهجر مصر ويعبر البحر الى بلد من هذه البلاد التي يطلب فيها العلم الواسع والادب الراقي ، وتتغير فيها الحيـاة من جميـع الوجوه . وكنت أريد أن أكون شيخا من شيوخ الازهر مجددا في التفكير والحياة على نحو ما كان يريد المتأثرون للشيخ محمد عبده أستعين على ذلك بما أسـمع في الجـامعة ، وما أقرأ من الكتب المترجمة ، وما أجد في الصحف ، وما أتلقط من أحاديث المثقفين ، فأصبحت وأنا أشد انصرافا عن الازهـر ، ونفـورا من دروسه وشيوخه ، وحرصا على أن أهجر مصر وأعبر البحر الى بلد من هذه البـلاد التي يطلب فيهـا العلم الواسـع والادب الراقي وتتغير فيها الحياة من جميع الوجوه ولم يكن لصـــاحبي ولا لي اذا التقينا حديث الا هذه الهجـرة وأسـبابها والا هـــذه الاحـلام العريضة البعيدة التي لا حدلها ، والتي تستأثر بنفوس الشـباب حين يفرضون على أنفسهم بلوغ غاية بعيدة شاقة . حين تخيـل اليهم امالهم أن بلوغ هذه الغاية أمر يسير .

ثم أصبحت ذات يوم مشغول النفس بما كنا نتحدث فيه أمس ، وانى لجالس في بيتي لم أذهب الى الازهر ، وما كان أكثر تخلفي عن الازهـر في هـــذه الايام وانقطـاعي الى خادمي الاســـود الصـغير يقـرأ لي قراءة محطمة أقيمها أنا ، وأصلح معوجها في نفسي . يقرأ لي مرة في ديوان من الشعر ، ومرة في كتاب من كتب التاريخ ، وحينا في قصة من قصص العـامة ، وانى لجالس ذات يوم الى خادمي الاسود وهو يقرأ على ديوان البحتري ، واذا الباب يطرق طرقا عنيفا ، واذا صاحبي يدخل وكأنه العاصفة ، واذا هـو يدعوني في صـوت سريع الى أن أنهض فألبس ثيابي وأخرج معه ، وان اسرع ، فان العـــربة تنتظرنا . وأحاول ان اسأله كيف خرج من ديوانه وما هذه العربة التي تنتظرنا ، والى

أين يريد أن يذهب بنا ، ولكنه لايجيب ، وانما يستعجلني ويلح في الاستعجال . حتى اذا تركته وذهبت لالبس ثيابي سمعته هو يذهب ويجيء كالمجنون ، ويتغنى في صوته الغليظ بما يحضره من الشعر . ثم اخرج له فيخطفني خطفا . ويعدو بي عدوا حتى يلقيني في العربة القاء ، ثم يأمر السائق ان يمضي الى مكان كذا حيث يقيم فلان .

ثم يهدأ بعض الشيء ، وينبئني بأن الجامعة قد أعلنت في الصحف انها سترسل طلابا الى أوربا ، وقد حددت موعد الامتحان وانه قد اقبل الي ، لالقى فلانا وفلانا ، وكلهم من اعضاء مجلس الجامعة ويجب ان اوصيهم به خيرا . فهو واثق بانه سيجوز الامتحان على احسن حال ، ولكنه يخشى ان يغلبه على الفوز بالبعثة اولئك الشبان الذين يتوسط لهم اصحاب الجاه .

وما دمت ياسيدي تعرف فلانا وفلانا وفلانا من اصحاب الجاه واعضاء الجامعة فليس لك بد من ان تتحدث اليهم ، ومن ان تتحدث اليهم اليوم ومن ان تتحدث اليهم امامي . لهذا كله تركت عملي ، ولهذا كله استأجرت هذه العربة ، ولهذا كله استعجلتك هذا الاستعجال ، وما هي الا اسابيع حتى تم لصاحبي ماكان يريد ، واصبح عضوا في بعثة الجامعة واخذ يتهيأ للرحلة الى باريس .

٧

يونيو في ...

ليتني لم أسمع لك أيها الصديق ، فقد كنت أوثر أن أرتحل الى فرنسا دون أن أذهب الى ريفنا الحزين لارى أبوي وأسرتي ولارى قريتنا ، ولاملا نفسي من هذه المشاهد الجميلة التي نشأت فيها ، وكنت أرى أني سأجد في هذه الرحلة القصيرة الى الريف آلاما يحسن أن أتجنبها وأن أستقبل الحياة الجديدة بنفس مشرقة وقلب لايجد حزنا ، ولا يحس لوعة ، ولا يأسى على شيء .

وأنا أكره الوداع وأرى في السفر كما يقول بعض الشعراء الفرنج نوعا من الموت ، ولا أحب أن أتلقى الموت مهما يكن يسيرا على علم به ، وانتظار له ، واشفاق منه . وانما أوثر أن يفاجئني مفاجأة ، وأن يختطفني اختطافا ، وأن أخرج من الحياة جاهلا بخروجي منها كما أقبلت على الحياة جاهلا باقبالي عليها .

لقد كنت شديد التردد في الذهاب الى الريف . أحس من نفسي ضعفا شديدا على احتمال هذا الوداع المؤلم ، وداع هذين الشيخين اللذين لم يكونا يحتملان اقامتي في القاهرة بعيدا عنهما الا كارهين ، فكيف بهما اذا علما أني لن أقيم في القاهرة . ولن تكون بينهما وبيني ساعات ، ولكني سأعبر البحر الملح العريض الى بلاد نائية لا تحسب المسافة بيننا وبينها بالساعات ، وانما تحسب بالايام . لقد كانا يكرهان أشد الكره اقامتي في القاهرة ، هذه المدينة التي لا يتكلم أهلها كما نتكلم ، ولا يعيش أهلها كما نعيش ، والتي يملؤها الفساد ويملؤها الصلاح في وقت واحد ، والتي يجري في شوارعها الترام والتي يكثر بين أهلها المحتالون والسراق ، والتي يخرج الرجل من بيته فيها فلعله لا يعود اليه . فكيف بهما حين يعلمان أني سأقيم في ذلك البلد البعيد الغريب الذي لا صلة بينه وبيننا في لون من ألوان حياتنا المعروفة . والذي لا يعلمان من أمره الا انه بلد الفتنة والعبث وموطن اللهو والمجون ، أليس اليه يقصد السراة وكبار الاغنياء والمترفين من سادات الريف اذا اجتمعت لهم المقادير الضخمة من الذهب ، فلا يكادون يقضون فيه الصيف حتى يعودوا وقد صفرت أيديهم من كل شيء ، وهم يقصون من أنبائه وأحاديث العبث والفسوق فيه ما تشيب له الاطفال ، وترتاع له نفوس الرجال . لقد كنت أقدر هذا كله حين كنت تجادلني في زيارة الريف قبل أن أبرح الارض ، ولكنك لازلت تلح علي وتذكرني وتثير في نفسي العواطف والذكريات ، حتى استحييت منك ومن أبوي ومن الناس ومن نفسي أيضا ، ورأيت أني لا أستطيع أن أفارق مصر ، دون أن أرى

هذين الشيخين . فمن يدرى ! لعلى أذهب فلا أعود ، ومن يدرى! لعلى أعود فلا ألقاهما .

هنـــالك رحلت الى الريف ونيتنى لم أفعل ، فلم أكن أظن أنى سألقى فى هذا الريف ما لقيت فى حزن لاذع وألم ممض ويأس لا صبر معه ولا احتمال له

لا أصف لك جزع أمى ولا سخط أبى ، فحسبك أن تعلم أن أمى لا تصيب من الطعام الا ما يقيم الاود ، وهى لا تصيبه الا بعد الحاح متصل . وانهـا لا تذوق النوم الا غرارا وانها لا تمسك الدموع ، وانما ترسلها ارسـالا حتى تنقطع ، وانها تعتقـد اعتقـاد يقين أنهـا قـد فقدت ابنها الذى كانت تحبه وتؤثره وتدخره للحوادث والنائبات وهى تمقت الجامعة وأيام الجامعة والذين فكروا فى الجامعة وهى تمقت العلم والذين يحبون العلم ويدعون اليه ، وهى تلعن المدارس وهذا التمدن الذى علم مصر فتح المدارس . وهى تأسف أشد الاسف وتندم اقسى الندم كلما ذكرت ذلك اليوم الذى اراد فيه أبى ان يقلد اباك ، فاخرجنى من الكتاب كما أخرج ابـوك من اخرج من اخوتك ، وارسلنى معهم الى المدرسة الابتدائية فى عاصمة الاقليم ، هناك حيث طرحت زى الريف واتخذت هذا الزى الاوربى ووضعت على رأسى هذا الغطاء البغيض .

ولست أخفى عليك أنها تنال أسرتك بكثير من لاذع القـول ، فهى التى ألقت فى روعنا ان من الخير ان يتعلم الاطفال فى هذه المدارس ، وان يلبسوا الطربوش . وأن يلووا ألسنتهم بالرطانة الاجنبية ، وان يصبحوا موظفين . وهى لا تفهم كيف استطعنا ان نعدل بما تعـودت أسرتنا منذ الزمن البعيـد من الاختلاف الى الكتاب حتى تحفظ القـرآن ، وتحسن القراءة والكتابة ، ومن الاختـلاف الى الازهـر حتى نحصل شيئا من علوم الدين ثم نعود الى القرية حيث الجد والعمل ، وحيث الغنى والثروة ، وحيث الجاه وبعد الصيت .

لا أطيل عليك فأمي ثائرة اذا اصبحت ، ثائرة اذا اضحت ، ثائرة اذا أقبل المساء ، ثائرة اذا جنها الليل ، ثائرة حتى امتلأ البيت حزنا وسخطا وبكاء . فأما أبي فمتنكر متنمر ، ينذر فيلح في النذير ، ويتلطف فيلح في التلطف ، فاذا أعياه النذير ولم يسعده الاستعطاف خرج عن طوره فأسخط من حوله جميعا وجعل حياتهم لا تطاق ، واقسم جهد ايمانه ليقطعن ما بينه وبيني من سبب وليعيش منذ الآن كأني لم أكن له ابنا . ولو أني استمعت لنفسي أيها الصديق لما اقمت في هذا الجحيم الا يوما أو يومين ، ولاسرعت الى القاهرة فانتظرت فيها معك ومع أصدقائنا هذا اليوم السعيد الذي تقلع فيه السفينة بنا الى هذا العالم الجديد الذي ملك على نفسي كلها وقلبي كله .

ولكني كيف أستطيع أن أدع هذين الشيخين فيما هما فيه ، ولما ابذل ما اقدر عليه من الجهد لاهون عليهما الامر بعض الشيء ، ولاردهما الى بعض الطمأنينة ولارحل عنهما وهما راضيان غير ساخطين . واني لاجد في ذلك ما وسعني الجد ، واحتال لذلك ما واتتني الحيلة ، واستعين على ذلك ببعض من له حظ من فهم ، ونصيب من ذكاء وعلم بحياتنا وما تقتضيه من تطور ، وبما بين حياتنا في هذا العصر وحياة آبائنا قبل ان نولد أو حين كنا أطفالا ، وما اظن اني سأبلغ وحدي أو بمعونة هؤلاء الناس شيئا ، فأمي مستيقنة بأني اذا سافرت فقد فقدتني ، وأبي مقتنع بأني ان سافرت فقد قطعت بينه وبيني كل سبب .

في ذات يوم اصبحت ضيق الصدر كئيب النفس ، شديد الحرج ، ممتلئا بهذا العجز الموئس من رضاء هذين الشيخين ، كارها أشد الكره للدار والقرية ومن فيهما ، فخرجت أهيم في الريف التمس راحة النفس في تعب الجسم ، ولست أزعم اني خرجت أريد وجهة بعينها ، أو اسعى الى غاية معروفة ، وانما هو المشي والابعاد فيه ، والخلوة الى النفس ، والفرار من لوم اللائمين ، وعذل العاذلين . والحاح الملحين . واني لامضي امامي لا احفل بشيء ولا

أقف عنـــد شيء ، وأكبر الظن ان كثيرا من الناس الذين أعرفهم والذين لا اعرفهم قـــد تقـــونى فحيونى ، وما اشك فى أنهم قـــد انكرونى لانى لم اسمع منهم ، ولم ارد عليهم تحيتهم ، ولعل كثيرا منهم قد تحدث الى نفسه بأن هذا أول الشر ، وبادرة الفساد ، انه ليعرض عنا ، ويكبر علينا ، ولم يذهب الى بلاد الفرنج بعد ، فكيف به اذا ذهب اليهـــا وعاد منها . .

والله يشهد ما رأيتهم ولا سمعتهم ولا احسست مكانهم منى ، انما كنت مشغولا بنفسى عنهم وعن كل شيء . وانك لتعلم أنى كثيرا ما حدثتك عن كلفى بالخروج الى الريف . والتروض فى الحقـــول أثناء هذا الفصل من العام ، حين يكون الحصاد ، وحين يشـــتد النشاط ، وحين تنتشر فى ريفنا هؤلاء الفتيات الفقيرات الحسان مبتذلات بحكم الفقر يطوفن بالحقول ويلتمسن أقـــواتهن فى التقاط ما يســـقط من الحب . انك لتعلم كلفى بالخروج فى هذا الفصل ، وانى أجد لذة حارة حادة فى الاستمتاع بهذا الجمال الطبيعى الذى تسبغه الحياة العاملة الجادة على أهل الريف حين يخرجون من أطوار الخمود والجمود ، ويفنون فى طبيعتهم هذه ، ويصبحون وكأنهم أدوات للعمل والانتاج ، لهم جد الاداة وصدقها واســـتقامتها وصبرها واعراضها عن الشكوى ، وبعدها عن الملل والسأم . فما رأيك فى أن هذا الجمال الذى يفتننى ويملك على قلبى ويحملنى على الرحلة الى الريف اذا كان هذا الفصل من كل عام ، لم يصل الى قلبى ، ولم ينته الى نفسى فى هذا اليوم . فلم أقف عنـــد الاجران ولم اتحدث الى المصيفات ولم أداعب فتى ولا فتـــاة من هؤلاء الشباب الذين يملؤهم العمل نشاطا ومرحا ويقينا وثقة وايمانا انما مضيت أمامى لا ألوى على شيء كأنما تدفعنى قوة خفية الى غاية خفية لم أتبينها ولم أتنبـــه لها ، الا فجأة حين رأيتنى واقفا جـــامدا وحـــين أنكـــرت من نفسى هذا الوقوف وهذا الجمود ونظرت من حولى كأنى أفقت من نوم عميق ، فما يروعنى الا ان أرانى واقفا اســـتظل بشجرات التوت عند الابراهيمية . هنـــاك حيث مدخل المدينة لمن أقبـــل عليها من الغرب .

تبارك الله فلم أكن اذا قد خرجت من دارنا ضيقا بها وبمن فيها ، ولم أكن اذا قد خرجت من قريتنا فرارا منها ومن أهلها، ولم أكن اذا قد هممت فى الريف التماسا للخلوة الى نفسى والراحة مما كنت أظن من عناه ، وانما خرجت من الدار وخرجت من القرية ومضيت فى الريف أمامى لانى لم أكن اجد بدا من أن أزور هذه المدينة التى انفقت فيها أحسن أيام الصبى ، ومن أن ألم بهذه الربوع التى ذقت فيها أطيب ما ذقت فى الحياة من لذة قوية طاهرة بريئة من كل اثم .

اذا فلتعد الى نفسى النافرة ، وليثب الى قلبى الجامح ، وليراجعنى هذا العقل المضطرب المشرد لاستجمع كل ما استطيع ان استجمعه من قوة الحس والعقل والشعور ، لاستمتع بالحياة القوية الخصبة فى هذه المدينة الحبيبة الى نفسى ، الكريمة على قلبى ، ولآخذ منها بأعظم حظ ممكن من المتاع، أجعله زادا لى فى هذه الرحلة البعيدة التى أنا مقبل عليها ، واجعله ذخرا لى فى هذه الاقامة الطويلة التى سأقيمها فى ذلك البلد الغريب .

لاملأ اذا عينى مما سأرى . ولاملأ اذا أذنى مما سأسمع ولاملأ اذا نفسى وقلبى مما سأجد، وانى لأنظر فلا أكاد أرى الا الابراهيمية تمتد أمامى ويسعى فيها الماء هادئا حلو السعى . والا هؤلاء الناس يسعون متفرقين ، منهم المقبل من الغرب يحمل الى المدينة ما يبعث اليها الريف من العروض ومنهم الذاهب الى الغرب يحمل الى الريف ما تذيع المدينة فيه من التجارة . بعضهم راجل ، وبعضهم راكب. وقليل منهم يتحدث الى رفيق وكثير منهم يغرق فى الصمت كأنما يفكر فيما وراءه أو فيما أمامه . وقليل منهم يتغنى كأنه يستعين بالغناء أو يعين به دابته على احتمال السفر البعيد ، وامرأة أو فتاة تأتى من حين الى حين ، فتغمس جرتها فى الماء حتى اذا امتلأت رفعتها الى رأسها ونهضت تسعى بها رشيقة رائعة الجمال غامضة فى هذا الصمت

الذى يحجب نفوس النســـاء ، ويستر ما يجول فيها من خواطر يود الرجل لو يعرف منها بعض الشيء . وانى لامد سمعى فلا اسمع الا هذه الاصوات المختلفة التى تأتينى من هـذه الحركات كلها ، وهذا اللحن الحلو المتصل المتشابه الذى يأتينى من هـذه الاطيار وقد اســـتقرت على الغصون . وكأنها وجدت لذة الراحة واحست رقة النسيم واستمتعت بخفض العيش بين هذه الاوراق النضرة . فهى تتغنى بالجمال واللذة والامـــل وحب الحياة . وانى لامد نفسى كلهـا فلا أحس الا حياة هادئة قوية نقية تأتينى من كل وجه ، من الحركات التى أرى ، ومن الاصـوات التى اسمع ، ومن هذا النسيم الخفيف الذى يمسنى مسا رفيقـا فيرد الى النشـــاط ويحيى فى نفسى الامل ، ويلقى عنى كل ثقل ويكاد يهبنى جناحين ويـــكاد يجعلنى طائرا بين هذه الطـير . ويكاد يرسل صوتى كما ارسل صوتها بالغناء ، وانا أقيم هنـا فى ظل شجرات التوت ساعة أنعم فيها بالراحة واستمتع فيها بالحياة واذكرك ايها الصديق . ثم اتهيأ للمضى أمامى ولانقض على المدينة من هذا المنحدر ، فرحا مرحا شيطا طروبا ، كما ينقض النسر ، وهأنذا أمضى واقدر ما سألقى من المناظر وأريد أن أبلغ أول القناة ، قناتنا أتذكرها ؟ اريد ان ابلـغ اولها وان اتبع مجراها أسـايره على الشاطىء الجنوبى حتى اذا بلغت ذلك المنحدر الذى تعرفه ، ودعتها لحظة وانحـــدرت الى المدينة لامر بهـذه الاماكن التى كنا نألفهـــا ، بالدكان وبيت ثم محمود وبيت زنوبة . ثم أمضى حتى ابلغ شارعكم ولعـلى أقف لحظة عند اوله فاتحدث الى بمبة . أتذكر بمبـة ؟ تلك التى كانت تسرف فى النـــوم وتسرف فى الغطيط ويسمع الناس غطيطها فى اكثر ساعات النهار ، وفى كل ساعات الليل ، اذا مروا امام بيتها الصغير . من يدرى ! لعلى كنت اقف لحظة عند هذا البيت فأعبث بصاحبته وأسألها عن اصناف الجبن الذى تبيعه وجه النهار ثم ألهو لحظة بابنها الابله ذى الرأس الغريب . أتذكره ؟ لقد كنا نسميه ابا الرءوس ، انـــه لا يتكلم ولا

يسمع ، ولا يكاد يصقل ؛ من يدرى لعلى كنت ألهو به لحظة ثم ألقى فى يده أو يد امه بعض النقد .

ثم امضى فى شارعكم نحو الشمال فأمر بهذه البيوت التى كثيرا ما نعمت فيها بالجد والهزل ، واقف عند بيتكم فى هذا المنعطف الصغير أمام الباب حيث تتدلى أغصان هذه العنبات التى كثيرا ما لعبنا فى ظلها واكلنا من ثمرها واتخذنا بينها الحدائق والحقول . ومن يدرى ! لعلى أجلس على هذه المصطبة الصغيرة عن يمين الباب اذا خرجت من البيت واذكرك أو اذكر اخوتك ؛ فكثيرا ما جلسنا عليها وكثيرا ما لعبنا الطاب . ومن يدرى ! لعل الذكرى أن تملأ نفسى وقلبى ، وان تنسينى نفسها وان تخيل الى انها حاضرة لم تمض ولم تنقض ايامها ، ولعلى اعتقد انى قد أقبلت لازوركم ، ولعلى أطرق الباب وانتظر ان اسمع من ورائه صوتا معروفا مألوفا يسأل عن الطارق وأنتظر أن يفتح وأن أرى من دونه شخصا معروفا مألوفا يرحب بى ويدعونى الى الدخول . . ثم انظر فارى شخصا لم أعرفه ولم آلفه يسألنى من انا وماذا أريد ، فأثوب الى نفسى واستأنف رحلتى وقد مثلت فصلا من حياتى الاولى ووجدت فى التمثيل مثل ما كنت اجد من اللذة حين كانت الحياة حقيقة واقعة .

ثم استأنف رحلتى فأمضى امامى نحو الشمال حتى أبلغ هذا المنحدر الذى كنا ننحدر منه بعد أن كنا نقضى ساعات على شاطىء القناة أو فى حديقة جرجس أفندى عن شمالنا ، أو فى حديقة المعلم من يميننا . فأرقى فى هذا المنحدر حتى ألقى القناة فأتابع شاطئها فى طريقى الى المدينة .

وكنت أقدر هذا كله واقدم لنفسى المتاع بهذا كله وانا امضى أمامى ملتمسا مخرج القناة من الابراهيمية . ولكن ماذا أرى؟ واين انا ؟ واين القناة ؟ انى لانظر فاذا الابراهيمية تمتد وتمتد ويجرى فيها الماء هادئا يحمل الحياة والخصب ، ولكن شاطئها من ناحية المدينة قد اعتدل واستقام ، فليس فيه عوج

وليست فيه فرجة يخرج منها الماء . اين القناة ؟ لقد كانت تخرج من نحو هذا المكان وكانت تمضى غير بعيد ثم يقام عليها جسر صغير تمر عليه بعض القطارات . ثم تمضى غير بعيد وتمضى معها فتبلغ هذا المنحدر الذى كان ينتهى بنا الى المدينة . أين القناة ؟ انى لا أراها ولا أجد لها أثرا ، وانما ارى شوارع وارى دورا تقوم فى هذه الشوارع ، وأرى معالم لم آلفها ، ومناظر لم ارها من قبل . أترانى أخطأت المدينة ؟ ومع ذلك فانا اعرفها كما اعرف نفسى ، واستطيع ان أمشى فيها واهتدى الى مسالكها المختلفة دون ان افتح عينى كما كنت تمشى فيها انت ايها الصديق لا تحتاج الى أن ترى ولا الى من يهديك الطريق . اين القناة ؟ لقد سلكت الى المدينة الطريق التى سلكتها ألف مرة ومرة ، فلست اشك فى أنى قد بلغتها وبلغتها هى دون غيرها من المدن ، فماذا اصابها بعدنا ، وأين ذهبت القناة ؟ انى لاريد أن اسأل فأجد حياء فى نفسى من السؤال ، ولكنى اطيل الوقوف واطيل النظر عن يمين وشمال ، واطيل النظر من امام ومن وراء حتى يخيل الى والى من كان يرانى من الناس أنى ابله قد فقدت الصواب . ثم لا أملك نفسى ، واذا انا أسأل عن المدينة وعن القناة واذا انا اسمع ويا شر ما اسمع . انى قد بلغت المدينة وان القناة قد ماتت منذ زمن بعيد وان معالم المدينة قد تغيرت منذ هدم معمل السكر ، ماذا اسمع ! معمل السكر قد هدم ، وماذا بقى اذا فى المدينة او ماذا جئت أرى فى المدينة ! ماتت القناة ، وهدم معمل السكر ! وغيرت المعالم ، وانتقل اكثر من كنا نعرف فى المدينة من الناس .

يا للحزن والاسى ، يا للوعة والحسرة ، يا لليأس والقنوط . أيبلغ العنف بالزمان ان يمحو هذا المقدار الضخم من حياة الناس فى أعوام قصار . لقد جد جيل وجيل فى اقامة معمل السكر واقامة ما حوله من الدور ، بل من القرى . لقد عاش جيل ، بهذا المعمل ولهذا المعمل . لقد عاش جيل

بهذه القناة ومن هذه القنـــاة . فكل هذا الجهد ، وكل هذا العناء وكل هذه الذكرى ، وكل ماكان على شاطىء القناة وحول معمل السكر من جد وهزل ومن لذة وألم ، ومن حب وبغض ، ومن أمل ويأس ، ومن مكر ونصح ، ومن خداع واخلاص ، كل هـذا يذهب فى أعوام قصـــار لا تكاد تبلغ عدد أصابع اليد الواحدة ، كأن شيئا من هذا لم يكن ؛ وكأن نفسا لم تتأثر بما أثارته الحياة فى هـــذه الارض من العواطف وكأن شفة لم تبتسم لمـا أنبتته هذه الارض من مناظر الجمـال وكأن عينا لم تبك لما شـهدته هذه الارض من اسـباب الحزن والاسى . يا للحزن اللاذع ، يا للالم الممض ، ويا لليأس المهلك للنفوس ! لقد ماتت قناتنا أيها الصديق ؛ ماتت ودفن فيها او صرف عنها ذلك الاله الشـاب من آلهة الاساطير الذى كان ينطلق فيها فرحا مرحا هـادئا وادعا مستبشرا يرسل البشر من حوله جميلا يثير الجمال على جانبيه . مات هذا الاله الشاب فـدفن فى مجراه او طرد هذا الاله الشاب ورد عن مجـــراه وفـــنى فى الابراهيمية . فأصـبح ماء من الماء وجرى لا يتميز من غيره ، لا يعرفه احد ولا يعرف هـــو أحدا ، لا يثير فى نفوس الناس حزنا ولا فرحا ولا يجرى لسنتهم بالحديث ؛ نسيه الناس ، ونسى هو الناس ، بل نسى نفســـه أيضا . انك لتعرف ان الهـــة الاساطير لا حياة لهـــم الا اذا أقيمت لهم المعـابد وأقاموا هم فى المعابد ، فاذا هدمت معابدهم فقد ماتوا أو طردوا من الارض طردا ، فقد هدم معبد هذا الاله الشاب ، وماتت الفتاة فمات هو أو نفى من الارض واصبح حديثا كغيره من الآلهة الذين أصـبحوا أحاديث . أتدرى أين اكتب اليك انى اكتب اليك فى مكان لم يتغير لان الحضارة لم تدع الى تغييره ، ولم يتبدل لان المنفعة لم تأمر بتبديله ، ولان يد الانسان لا تكاد تجرأ على ان تمتد اليه ؛ انى اكتب اليك عند المسجد ، عند بابـه البحرى ، اتذكر هذا الباب هـو الذى يدخل منه المترفون الذين لا يحتـاجون الى أن يمـروا بالميضـة لانهم يتوضـأون فى بيوتهم ولا أن يمـروا بالمغطس لانهم يسـتحمون فى بيوتهم ،

اتذكر هذا الباب ؟ انه ينتهي بك الى قلب المسجد لا الى فنائه ولا الى الصحن المنبسط امامه . انك اذا دخلت منه لم تكد تخطو خطوات حتى تجد عن يمينك قبر ذلك الفتى الذي بناه . اتذكر هذا الباب ؟ انك اذا اقبلت عليه وجدت مقعدين من الحجر يكتنفانه عن يمين وشمال ، فأنا اكتب اليك عند هذا الباب واكتب اليك قائما لا قاعدا . وأكتب اليك وقد وضعت القرطاس على أحد هذين المقعدين المرتفعين وقمت أمامه أجرى يدي بما تلقيه هذه النفس الحزينة على هذا القلم الشقي .

لقد أطلت ولكني لم أحدثك الا بأيسر الحديث ، لقد أطلت ولكني لم أحدثك عما رأيت ، بل لم أحدثك عما لم أر فان ما رأيته لا يستحق الحديث ، وانما الذي يستحق الحديث هو هذه المعالم التي أقبلت زائرا لها . فلم أر منها عينا ولا أثرا ، وسألت عن بعضها فلم أجد بين الناس الذين سألتهم من يعرف لها نبأ أو يروي عنها خبرا . هذه المعالم التي جئت لاراها والتي لم أرها ، هي التي تستحق الحديث . لن أرسل اليك هذا الكتاب حتى أتمه . ولن أتمه الان . فقد آن لي أن أروح الى قريتنا حيث ينتظرني الحزن والسخط والبؤس والشقاء .

نعم لن أرسل اليك هذا الكتاب حتى أتمه ، فما ينبغي أن أحتمل وحدي ثقل هذا الحزن وما أظن أن غيرك وغيري من الذين نشأوا في المدينة يحزنهم أن يعلموا بموت الفتاة أو بتغير ما ألفوا من المعالم أو بتفرق من ألفوا من الناس

وأكتب اليك الان من قريتنا وقد بلغتها مع الليل فألهاني ما شهدت فيها بعض الوقت عما كان يملأ نفسي من الحزن والحسرة ، ولو أنك رأيت للهوت كما لهوت ، ولما استطعت أن تمنع نفسك من ضحك ينفذ اليه حزن غير قليل . فقد رأيت أهل الدار وقد ملكهم جزع غريب لم يحكموا فيه عقلا ولا روية وانما اندفعوا فيه اندفاعا افتقدوني وجه النهار فلم يجدوني وانتظروني حتى انتصف النهار ، وهم يظنون أني قد خرجت لبعض ما يخرج له الشباب من النزهة

والتماس التـــروض والعبث فى الحقول • ولكنى لم أعد مع الظهر ، ولم أعد مع العصر ، فلم يشـك أحد فى انى لم أخرج لنزهة ولا لتروض وانما فررت منهم فرارا، وعدت الى القاهرة أنتظر فيها يوم الرحيل

وتستطيع أن تصور لنفسك ما ملأ نفس الشيخين من هـذا الحزن العنيف الذى يملؤه السخط والغضب • وتملؤه الرقة والرحمة فى وقت واحد • لقد كنت ابنا عاقا يرتحل دون أن يودع أبويه، فكنت خليقا أن أثير الســخط والغضب والموجدة ، ولكنى كنت ابنا يرتحل الى بلد نازح ، فكنت أثير الرحمـة والحب والحنـان ، وكانت غريبة هذه الدموع التى كانت تنحـدر من عينى أمى ، لا يعرف الناس أهى دموع الغيظ والحنق أم هى دموع الوجـد والحنين • وكانت غريبـة هـذه الالفاظ التى كانت تنطلق متصلة على لسان أبى ، لا يعرف الناس أصدرت عن أب ينـكر على ابنه عقوقه وجحـوده وقسـوة قلبه الغليظ أم صدرت عن أب ينفطر قلبه حزنا لان ابنه قد سافر الى بلد مجهول ، وهو لا يعرف متى يعود ولا كيف يعود •

ثم كانت غريبة هذه العواطف التى ثارت فى نفسى حين بلغت الدار فرأيت الشـيخين راضيين يظهـران الســخط ومسرورين يتكلفـان الحـزن ، ومبتهجـين يتصنعان الاكتئاب • ففى قلبهما اذا عطف على • وهذا الغضب الـذى أراه وأتأذى له ليس الا مظهرا من مظاهر هذا العطف ، ولونا من ألوان هـــذا الحب ، وصورة من صور هـذا الحنان ، واذا فسأسافر الى هـــذا البلد الغـــريب وأنا واثق بأن الذى سيصحبنى فى هذا السفر هو الحب والعطف والحنان لا السخط والغضب والموجدة • ولعل خروجى الى المدينة لم يكن شرا كله وانما كان فيه بعض الخير ، على كثرة ما أثار فى نفسى من الالام الملحة الباقية ، فلاول مرة عـدت الى القـرية استطعت أن أطفـئ من أبوى بساعات فيها هدوء وطمأنينة وحديث متصل مختلف ، كأن عودتى اليهما من الرحلة القصيرة

التى انقضت قد ألهتهما عن تلك الرحلة الطويلة التى لم تبتدىء بعد . وكان أكثر حديثنا عن المدينة التى زرتها ، وعما تغير من معالمها ومن تفرق من أهلها . وكان الشيخان يتحدثان الى فى ذلك كله حديثا هادئا مطمئنا يغشاه حزن خفيف وتتردد فيه ذكريات مؤثرة ، ولكن قوامه الرضى بما كان والسخط على ماهو كائن والامل فيما سيكون . وكانت أحاديثهما متممة لما رأيت وما علمت ، ومتممة فى الوقت نفسه لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى لهذه الحياة المنقضية ولهذه العهود الماضية ولهذه الذكريات التى ستبقى ما بقيت .

نعم كانت أحاديثهما متممة لتشييد هذا المعبد الحزين الذى أقمته فى نفسى والذى يجب أن تقيم مثله فى نفسك لذلك العهد الذى مضى الى غير رجعة ومات الى غير نشور . ولابد من أن أتم لك ماتم فى نفسى من تشييد هذا البناء المظلم الحزين الذى ستتردد فيه الذكريات حائرة مضطربة كما تتردد هذه الطير التى تألف الظلمة فى البيت المظلم الحزين .

وماذا تريد أن أقص عليك من أمر المدينة ؟ لم يبق فيها شىء مما كنت تعرفه وتألفه ، ماتت القناة فمات من حولها كل شىء . فأما حديقة المعلم فتستطيع أن تلتمسها فى نفسك واجتهد ان استطعت أن تستحضر ما بقى من صورتها وأن تثبته ، فانى أخشى أن يعبث الزمان بالصورة كما عبث بالاصل . وأما بيتكم فلن تراه الا فى الخيال يقظان أو فى الحلم نائما . وكذلك هذه البيوت الحسان التى كانت تقوم على شاطىء القناة والتى كنت تحب أن تدخل بعضها لتتحدث الى محمود وعثمان ، ولتسمع لعزيزة وأمينة . وقد مضى أهلك الى أقصى الصعيد ، وهبط أهل عزيزة وأمينة الى القاهرة . فتستطيع أن تلقاهم ان شئت فقد كنا نسمع أنهم كانوا يقيمون فى بولاق قبل أن ينقلهم العمل الى مدينتنا .

وأنت تعلم من غير شك أن عم حسنين قد انتقل الى السودان بعد أن عصف الموت ببيته فأذوى منه غصونا وأذبل زهرات .

ولكنك تجهل أن «حسن كوزو» قد رحل الى عزبة « المكسرين » وأنت لا تعرف عزبة «المكسرين» فهى قطعة من الارض منحتها الحكومة لعمال الدائرة السنية الذين عجزوا عن العمل • فهم يقضون فيها ما بقى لهم من حياة

فأما سيدنا فقد ارتحل الى حيث لا يؤوب المرتحلون وسبقته حماته الشمطاء ذات اللسان الحاد الذى لم يكن يعرف السكون • واستأنفت زوجه الشابة حياتها سعيدة مع ذلك الذى كان يدور حول بيتها كما كان يدور الاحوص حول بيت أم جعفر • وفقدت عالية أم غريب زوجها الضرير ثم انتقلت مع أبنائها الى حيث لا يعلم أحد • وطارت أم محمود مع غوى من أهل المدينة، ذهب بها الى حيث لا ينكر الناس عليه غوايته • ولقيت زنوبة من دهرها شرا ونكرا • فخانها زوجها جهرة بعد أن كان يخونها سرا، وآثر عليها بنت أخيها الفتاة • ثم مضى الدهر فى تنكره لها ومكره بها ففقدت بصرها، وعاشت أعواما لا ترى النور ، ثم رأفت بها الايام فأخرجتها من هذا العالم الذى لا يكمل الصفو فيه •

أتريد أن تعلم أكثر مما علمت وأن تحزن أكثر مما حزنت ؟ فقد هدم الكتاب هدما ، وذهب ما كان حوله من الاشياء ومن كان حوله من الناس •

نعم هدم الكتاب هدما ، وما أعرف أن شيئا مما رأيت أو شيئا مما لم أر ، ترك فى نفسى من الاثار المؤلمة والندوب التى ستبقى ما بقيت مثل ما تركه فيها منظر الكتاب المتهدم • فما تزال معالم الكتاب باقية ، على نحو ما كانت تبقى معالم الديار لقدماء الشعراء • فالكتاب الان طلل تمحوه الايام شيئا فشيئا وتبقى من آثاره الى الان بقية مؤذية حقا • لقد ماتت القناة عن شماله وسويت الطريق عن يمينه ، ونزع منها ذلك الخط الحديدى الضئيل الذى كانت تمضى عليه تلك القطارات الزراعية الصغيرة تحمل القصب الى معمل السكر أثناء العمل وتحمل التراب والحصى اذا كان الفيضان لردم هذا المستنقع العظيم الذى كان يؤذى المدينة فى كل عام •

نزع هذا الخط وسويت هذه الطريق وقلت الحركة عن يمين الكتاب وشماله . وعملت معاول الهدم فى الكتاب نفسه وفيما كان يجاوره ويوازيه من البناء حول دار المأمور . فالمنظرة التى كانت امام الكتاب والتى كان ينزل فيها اضياف المأمور قد هدمت كما هدم الكتاب ، واصبحت طللا مثله . والبيت الذى كان يقوم وراء الكتاب وتعيش فيه أسرة عم نوح قد هدم كما هدم الكتاب وانتشرت هذه الاطلال فى هذا الفضاء انتثارا محزنا موئسا ، ولكن مكان الكتاب بينها يثير فى النفوس أسى غريبا ولوعة محرقة حقا . ان ارضه مازالت مرصوفة بهذه الاحجار التى كان يفلها التلاميذ مساء الاربعاء من كل اسبوع بعد ان يقرءوا الحزب ، وان عتبته مازالت قائمة ولم تمح جدرانه كلها محوا ، وانما بقى منها شىء يرتفع هنا وينخفض هناك ، وتستطيع ان تتبين مواضع المقاعد الخشبية التى كانت مسندة الى هذه الجدران والتى كان يجلس سيدنا على احدها عن يمينك اذا دخلت ويجلس العريف على احدها الآخر عن شمالك اذا دخلت ، ويجلس المترفون من التلاميذ على سائرها ثم يختلط بينها الفقراء وابناء الشعب ، على حصر ممزقة تستر بعض الارض وتبين عن بعضها الآخر ، ولاتكاد تجدد الا حين تستحيل الى قش لايكاد يتصل ، وحين يجود بعض الاغنياء بما يقوم مقامها

قل ماشئت واعجب بالشعر ما احببت واحفظ من وقوف الشعراء على الاطلال وبكائهم على الديار وذكرهم للظاعنين ما استطعت أن تحفظ ، فسيظل هذا كله فى نفسك كلاما اجوف لايحتوى شيئا ولا يدل على شىء ، حتى تقف موقفا كالذى وقفته منذ حين بين هذه الاطلال عن يمين وشمال ، وحتى تذكر ماذكرت من هذه الحياة القوية الغنية الخصبة التى كانت تملؤها الحركة والنشاط ، وتضطرب فيها الامانى والآمال ، وتختصر جيلا مضى وتنبىء عن جيل مقبل ، فذهبت هباء وتفرقت فى الارض ، ولم يبق منها فى هذا المكان الا صدى

لايحسه الناس جميعا ، ولايقدرون وجوده ، وانما يحسه مثلك ومثلى من الذين اشتركوافى هذه الحياة وتاثروا بها وملاوا من صورها النفوس والقلوب . لقد وقفت على الكتاب وقفة طويلة وجعلت انظر حولى فلا أرى الا هذه الاحجار المتناثرة وأمد أذنى فلا اسمع الا هذا الصدى الذى كان يضطرب فى الفضاء ، ولكنى مع ذلك كنت أرى رفاقنا جميعا ، وقد أخذوا مجالسهم فى الكتاب ، هذا يقرأ ، وهذا يسمع ، وهذا يلغو ، وهذا يكتب ، وهذا يلعب ، وكنت أحلل هذا الصدى المتردد فأجد فيه هذا اللفظ الذى كان يسمع من مكان بعيد فيدل سامعه على مكان الكتاب ، ولولا انى مازلت محتفظا ببقية ارادة ، وفضل من القدرة على ضبط النفس لجننت ولتحدثت الى هؤلاء الاشخاص الذين كنت اراهم يجرون ويلعبون ، ولشاركتهم فى الجرى واللعب . لا اخفى عليك انى ملكت نفسى فلم يذهب بها الجنون ، ولكنى لم أملك عينى ، ففاضت منهما الدموع . هممت ان امضى ولكنى لم اسلك الطريق العامة حيث كان يمتد الخط الحديدى ، وانما هممت ان امضى نحو بيت المأمور ، فما راعنى الا النخلتان اللتان كانتا تقومان بين الكتاب وبيت نوح ، واذا هما قائمتان كعهدهما تبسطان ماكانتا تبسطانه من الظل ، وتحملان ما تعودنا حمله من التمر الذى لم يتم نضجه بعد ، وتلقيان ما كانتا تلقيان من بعض هذا التمر الذى كنا نلتقطه فنعبث به ، ثم كنا نلتقطه فنأكله اذا قارب النضج ، ثم كنا نزدحم عليه ونتنافس فيه اذا تم نضجه ، وما زالت النخلتان قائمتين بين هذه الاطلال المتهدمة ولكنهما قد فقدتا ماكانتا تبعثان من بهجة ، وظهرت عليهما كآبة عميقة حزينة مثيرة لليأس كانهما تجدان الوحشة فى هذا المكان الذى خلا بعد عمران ، ومات بعد حياة

لقد وقفت عند هاتين النخلتين لحظة ما أعرف أنى قضيت مثلها ، ولقد ذقت فى هذه اللحظة من لذة الذكرى والم الحسرة مالا أعرف

انى ذقت مثله قط . وانى لاذكر الآن هاتين النخلتين فأمنحهما حبا ومودة وأهزأ بهذا الامتحان الذى أخضعكم له ذات يوم أستاذ من أساتذتكم فى الجامعة حين ذكر حلوان ثم استطرد الى نخلتى حلوان ثم كلفكم أن تبحثوا عن هاتين النخلتين أين كانتا وماذا قيل فيهما من الشعر ومن ذا تغنى بهما من الشعراء !. لقد اجهدت نفسك فى البحث . ولقد كنت تعجب بشعر مطيع فى هاتين النخلتين ، ولقد كتبت كلاما كثيرا عما عرفت من أمر هاتين النخلتين ولقد كنت راضيا عن نفسك لان الاستاذ كان راضيا عنك ، ولكن ماذا تركت نخلتا مطيع فى نفسك من أثر ، وماذا بعثتا فى قلبك من عاطفة ؟ انما هو كلام يروى ثم يثير فى أنفسكم العجب والتيه والغرور أكثر مما يثير فيها الشعور الصادق بالجمال الصادق .

اسرع أيها الصديق الى مدينتنا فألم بها يوما أو بعض يوم قبل أن تمحى معالم الكتاب محوا ، وقبل أن تجتث النخلتان اجتثاثا ، وقبل أن تتم الحضارة عماراتها الشاهقة على هذه القبور العزيزة التى دفنا فيها الصبى ، وما كان يملؤه من الفرح والمرح ومن الحياة والنشاط اسرع الى النخلتين فأجلس اليهما واستظل بظلهما ثم أنشد شعر مطيع ، فستفهمه وستتذوقه وستشعر بما يصور من الحزن كما شعر به مطيع نفسه .

ليت الايام تتيح لى أن أحقق أمنية تضطرب فى نفسى فأجمع نفرا من رفاقنا ونقصد الى الكتاب والى ماحوله من الاطلال والى النخلتين فننظر ونسمع ونجلس ونتحدث ونحيى عهدنا القديم ساعة أو بعض ساعة .

لست أدرى أتقرأ هذا الكتاب الطويل أم تضيق به ، وتشفق من طوله ، وتكره أن تنفق فى قراءته من وقتك ما انت فى حاجة اليه لتستعد لدرس من الدروس ، أو لتقرأ فى كتاب من الكتب ، أو لتحفظ من بعض الدواوين ، ولكنى لم أكن أستسيغ ان اكتب اليك أقصر مما كتبت . ولولا اشفاقى عليك ورثائى لك لكتبت اليك اطول مما كتبت ؛ فقد تقدم الليل حتى تجاوز نصفه ، فكل شىء ساكن من حولى الا هذه الاصوات التى تبلغنى من حين الى حين ، أصوات الخفراء

حين يتنادون أو أصوات الديكة . فتحسب ان الفجر قد لاح، فتصدح بنداتها العذب لتلقاه بالتحية وتنبىء الناس بمطلعه . ثم تعلم بعد ذلك أنها قد خدعت ، أو هي لا تعلم شيئا وانما يمضي بها النوم في أمواجه المتصلة المتلاطمة فتعود الى الصمت وتغرق فيه . ولعلي اجرد نفسي من خواطرها . واسلها مما حولها سلا ، وأعلقها في هذا السكون تعليقا ، فأسمع اصداء تتردد ويدعو بعضها بعضا ويجيب بعضها بعضا ، وتصور لي ذلك الصدى الذي كنت أسمعه في الكتاب ثم اريد ان احلل هذه الاصداء واردها الى اصولها ، واتخذ لها اشخاصا احياء ، فيخيل الى انها نفوس الاجيال التي سكنت قريتنا على اتصال الزمن ، ويخيل الى ان اجسام الناس والحيوان والاشياء هي وحدها التي تزول ، وهي وحدها التي تتغير ، وهي وحدها التي تبرح الارض . فاما نفوس الناس والحيوان والاشياء فمتصلة بالارض لا تبرحها ، مضطربة في الجو لا تفارقه ولا تزول عنه ، وانما هي حياة لا يشعر بها الاحياء الا اذا سلوا انفسهم من المادة سلا ، وعلقوها في سكون الليل تعليقا ، لقد تقدم الليل حتى جاوز نصفه وكاد يبلغ ثلثيه ، ولقد سكن من حولي كل شيء ، وأنا لا اسمع دعوة النوم ولا أحس مقدمة ، ولا أرغب فيه ، وانما أنا حريص كل الحرص على أن ابقى مع هذه الذكريات أتحدث اليها ، وأسمع منها حين اتخذها موضوعا لما أحمل هذا الكتاب اليك من حديث وما أظن أن الفجر سيلقاني نائما بل أنا واثق من انه سيلقاني يقظان، ولولا ان يراع اهل الدار وان تظن بي الظنون لخرجت لاستقباله في الفضاء فأنا اكره ان يدخل على نوره من النافذة ، كأنه اللص ، واحب ان القاه في الفضاء الطلق، فأملأ به نفسي وقلبي ، والتمس في ضوئه الهادىء الحلو هدوءا لهذه الثورة التي لا أستطيع أن اكبح جماحها ، ولا ان انتهي بها الى السكون .

يا للحزن ويا للاسى ! يا للوعة ويا للحسرة ، ويا لليأس ويا للقنوط! لقد اقبلت على الريف وكنت اظن اني سأملأ عيني وأذني

ونفسي وقلبي بما احببت وبما ألفت ، وانى سأحمل هذا كله الى حيث اريد ان اقيم وراء البحر ، فلم أجد شيئا وهأنذا سأعود اليك بعد ايام ، ثم ارحل الى مصر بعد اسابيع لا احمل فى نفسي الا أطلالا متهدمة ، ونخلتين قائمتين صامتتين تجدان الوحشة ، وتبعثانها من حولهما ، ما اكثر ماكنت اريد وما اقل ماوجدت وما أكثر ما يعبث بنا من الآمال ، تقبل تحية صديقك اليائس»

وأنا اعترف انى تلقيت هذا الذى هو اشبه بالسفر منه بالرسالة فى شيء من الخوف والاشفاق من طوله ، ولكنى تعودت من صديقى طول الحديث واختلافه وكثرة الافتنان فيه ، فأبقيته يوما كاملا لم أقرأه ، ولم اعرف مافيه حتى فرغت له اخر النهار فقرأته ، ولكنى لم أحس له من الاثر مثل ما أحسست له حين أعدت قراءته فى هذه الايام . وكان الامد بين صديقى وبينى كان بعيدا أشد البعد ، فقد كنت اقدر الذكرى وآنس اليها واحب التحدث عن العهود القديمة ، ولكنى لم أكن أكلف بهذه العهود ولا احفل ولا آسى عليها .

ولعلى كنت مدفوعا الى ان أسخر منها سخرا غير قليل ، فقد كنت مفتونا بحياتى فى القاهرة راضيا عما كنت أتلقاه كل يوم من جديد الامر ، مبتهجا بما كانت تتفتح له نفسى كل ساعة من العلم . وكان هذا النشاط العقلى يبهرنى ، ويسحرنى ويدفعنى الى طور من أطوار الحياة يشبه ان يكون سكرا متصلا . وكان تذكر العهود القديمة يؤذينى لانه يخرجنى من هذه الحياة اللذيذة بعض الشيء ، ويردنى الى تلك الحياة التى طالما ضقت بها أيام كنت صبيا ناشئا فى الريف . فلم أحفل بالقناة ولا بموتها ، ولم أحفل بالخط الحديدى ولا بانتزاعه ، ولم اكترث للكتاب ولم أعرف للنخلتين خطرا . وما قيمة الكتاب وما قيمة النخلتين ولم يقل أحد فى الكتاب ولا فى النخلتين شعرا ، ولم يتحدث كتاب قديم عن الكتاب ولا عن النخلتين ولا عن القناة

ولا عن الخط الحديدى ، ولا من معمل السكر . والله عز وجل قادر على ان يغفر لى الخطيئة ويعفو لى عن الذنب ، ويتجاوز لى عن السيئة ، فقد لقيت ما أنبأنى به صديقى من موت سيدنا بشيء من الابتسام وهز الكتفين . أما الآن فأرانى مع صديقى متلمسا أصل القناة باحثا عما الفنا من الاحياء والاشياء . حزينا ملتاعا بل يائسا قانطا ، أما الان فانى أقرأ هذا الكتاب فاسأل نفسى : أين هذا الكتاب والنخلتان ؟ وماذا قام فى ذلك المكان ، الذى قضينا فيه شطرا من حياتنا لعله خير ما اتيح لنا ان نحيا .

٨

اذا لم يكن الا الاسنة مركبا فلا رأى للمضطر الا ركوبها

ألقى هذا البيت بصوته الغليظ ومد قافيته مدا طويلا . وهو يضرب الارض بعصاه ، ويلقى طربوشه على مائدة كانت أمامى ثم جلس لم يبدأنى بتحية ، ولم ينتظر أن أردها عليه ، وكأنه اعتقد ان هذا البيت الذى القاه على هذا النحو خير تحية يمكنه أن يهديها الى ، وأن دهشى لقدمه وانتظارى لتفسير هذا البيت ، والابانة عما أراد به ، خير رد عليه . واكبر الظن انه لم يكن يرى التحية والرد عليها الا لونا من تنبيه القادم الى مقدمه وتنبيه المقيم الى أن احدا قد اقبل عليه ، ومادام هو قد بلغ من ذلك ماكان يريد فليس عليه بأس من ان يسند عصاه ويتخفف من طربوشه ويجلس الى المائدة التى كنت اجلس اليها مالئا الجو بضحكه العريض كما تعود ان يفعل كلما أتى شيئا غريبا . ثم يرفع صوته بهذه الجملة التى يمتلىء بها بيتنا الصغير كله « هات الشاى ياغلام » .

ثم يستريح قليلا من الحركة ومن الكلام ثم يستأنف حديثه من حيث انتهى وهو انما انتهى عند انشاد البيت ، فيقول : والاسنة هنا ياسيدى هى هذه الزيارات التى ستنفق فيها آخر النهار واول

الليل ، حتى اذا ملأنا آذاننا من لغو الناس وملانا آذانهم من لغونا . وقلنا مالانعتقد ، وسمعنا من الناس ما لايعتقدون ، وشبع بعضنا من الكذب على بعض ، انصرافنا الى خلوتنا تلك فى أعلى الربوة ففرغنا لجدنا الذى خلقناله ؛ وأخذنا منه بحظ موفور قبل أن يفرق بيننا الرحيل ، وأظن انك لن تمانعنى فى أن نبدأ زياراتنا بشيخك الاديب ، فانى قد أحببته منذ عرفته ، ولست ادرى ايحبنى ام يبغضنى ، ولكن ذلك لايعنينى فحسبى انى احبه ، وانى اريد ان أراه وان استمع اليه ، وانى اريد ان يكون ذلك فى هذا المساء ، لانى سأشغل منذ غد بما يصرفنى عن الزيارات . والخير ان توطن نفسك على انك ستخرج معى الآن فلاتعود الى بيتك الا اذا أسفر الصبح ، وغمرت الشمس مدينة القاهرة بضوئها الحار المحرق ، وان لم يرتفع النهار . وما أحب ان تجادلنى فى ذلك او ان تنكره على ، او أن تتعلل بهذه التعلات التى لاتغنى فانى مصمم على أن يتم ما أريد مهما تكن المصاعب ، ومهما تخترع من التعلات . ولولانى نهضت وأتيت حركة الذى يريد أن ينصرف ويترك له الغرفة وما فيها لما انقطع هذا السيل المندفع عن التدفق ، ولما كف هذا الغيث المنصب عن الانهمار . ولكنه رآنى قائما أتحول الى باب الغرفة وقد رفعت يدى كأنما أريد ان أضعهما على أذنى ، فأغرق فى الضحك ، ثم ردنى الى مكانى وهو يقول: « لك ماتريد فسأبلعك ريقك ، فقد يخيل الى انى منذ اقبلت لم أرحك ، ولم أرح نفسى من الكلام ، ولكن لاتلمنى فى هذا ولم غلامك هذا الاسود الصغير ، فلو انه اسرع بالشاى وشغلنى به وببعض مايصحبه من الطعام ، لانصرفت اليه بعض الشىء عن هذا الكلام المتصل » .

ثم صمت متكرها وتعجلت خادمى فجاءه بما كان يريد ، واستطعت ان أتحدث اليه ، وان أسمع منه كما يتحدث بعض الناس الى بعض فى هدوء واطمئنان وشىء من الرزانة والتفكير .

ولم أشك مع ذلك فى انه كان مضطرب النفس ، شديد

الاضطراب مدفوع القلب الى ثورة عنيفة لايعرف منها مخرجا ولاينتهى منها الى قرار . فقد أخذت أتعلل عليه وأظهر كراهية الخروج ، ثم اقيم الدليل اثر الدليل على انى ان خرجت فلابد من أن أسرع الى العودة لانى لاأستطيع السهر فى هذه الليلة . كان كلما سمع منى تعلة محاها محوا ، وكلما سمع منى دليلا نقضه نقضا ، حتى اذا أعياه ذلك وضاق بهذا التمنع الطويل نهض كالمغضب وخرج من الغرفة واندفع الى الغرفة التى كان أخى قد خلا فيها الى بعض كتبه ، فدفع بابها دفعا ، ولم يكد يجد أخى حتى أنبأه بأنه سيصحبنى فى بعض الزيارات ثم سيقضى معى اكثر الليل او كله فى حديث طويل ذى بال ، وخيره ضاحكا صاخبا بين أن يكون هذا الحديث الطويل الخطير هنا فى هذه الغرفة امام غرفته او هناك فى بيته البعيد على تلك الربوة مما يلى القلعة .

وكان أخى أشد الناس ضيقا بالناس ، واكثرهم نفورا من الزيارة والزائرين ، وأشدهم بغضا لهذا النوع من الحديث الطويل ذى البال ، الذى يظن اصحابه ان له خطرا ، وانما هو وسيلة من وسائل قتل الوقت ، والانصراف عما ينبغى للطالب الجاد من درس وتحصيل . فلم يكد يسمع حديث صاحبى حتى أجابه متعجلا أن أخرجه معك متى شئت وأعده متى أحببت ؛ فلست أطلب اليك ولا اليه الا أن تريحانى من لغوكما الذى لاحد له ، فأخى يعلم ، ولعلك تعلم أيضا ، أنى غارق فى الاستعداد للامتحان .

قال ذلك وأعرض عنه الى كتبه فعاد الى جذلان مبتهجا وهو يقول : لم تبق لك حجة وانما انت منذ الآن ملك لى ، فلا بد مما ليس منه بد .

ولم يكن بد من أن اذعن له ، وأنزل على حكمه وأطوف معه فى بعض أحياء القاهرة نزور هذا لماما ونزور ذاك فنطيل عنده الاقامة وهو فى أثناء هذه الزيارات وفى أثناء الطريق التى كنا نقطعها من بيت الى بيت ، مندفع فى مزاح لاينقطع بصوت مرتفع كثيرا ماكان يلفت الينا الناس ، وكثيرا ماكان يحملنى على أن الح عليه فى ان يخفض منه

بعض الشيء وعلى أن أقسم له انى لست أصم وانى اسمع همسه فضلا عن حديثه المعتدل . وان احتج له على أن الناس ليسوا فى حاجة ولسنا نحن فى حاجة الى أن يشاركونا فيما نأخذ فيه من عبث وجد. وكثيرا ما اضطر أصدقاؤنا الذين زرناهم الى ان يظهروا الضيق بصوته المرتفع الذى لا يخفى شيئا ، ولا سيما هذا المزاح الغليظ المسرف فى الحرية الذى يرتفع به صوته حتى يخشى أصحاب الدور أن يبلغ النوافذ وأن ينتهى الى آذان لاينبغى أن ينتهى اليها .

ومهما يكن من شيء فقد كانت صحبتى له هذا المساء لذيذة حقا متعبة حقا ، كانت لذيذة لهذه الفنون المختلفة التى كان يطرقها فى أحاديثه المتصلة ، ينتقل من بعضها الى بعض فى غير تمهيد ، ولا تنبيه ولا مناسبة ، وانما هو الاستطراد كما يفهمه هو لا كما تفهمه أنت ، ولا كما أفهمه أنا ، معتمدا على هذه المناسبات الظاهرة التى تدعو الى الشرح والتفسير ، وتبيح الانتقال من موضوع الى موضوع ، وانما هى مناسبات خفية كان يجدها هو ولم نكن نجدها نحن . فكان استطراده من موضوع الى موضوع اشبه شيء بالوثوب والقفز من شاطىء القناة الى شاطئها الآخر دون اصطناع جسر أو شيء يشبه الجسر . وكنا نجد فى استطراده هذا مايلهى ويضحك ويعجب ، وكنا نقدر دائما أنه اذا وثب من موضوع الى موضوع أو قفز من حديث الى حديث ، فلن يعود الى الموضوع الذى وثب منه ولا الى الحديث الذى تجاوزه ، ولكنه كان يقهرنا فلا ينسيه موضوع موضوعا ولا يشغله حديث عن حديث ، ومن أجل هذا استحالت اللذة التى كنا نجدها فى الاستماع له الى تعب مضن للعقل ، منهك للقوى . ويكفى أن تتصور رجلا يسير بك أو يعدو بك فى طريق ثم لايلبث أن يعدل بك الى طريق أخرى ثم لايلبث أن يردك الى الطريق الاولى فيعدل بك الى طريق ثالثة ، وهو يمضى فى ذلك جاهدا متصل الجهد ، لايريح ولا يستريح فأنت واجد فى هذا لذة ، وأنت مستقبله بالنشاط والمرح ،

ولكنك لاتلبث أن يدركك الاعياء والسأم وأنت تتمنى على صاحبك ان يعفيك من هذا الاضطراب أو يمضى بك على صراط مستقيم .

وكم تمنينا وكم الححنا فى التمنى ، ولكن عقل صاحبى كان قد ركب على هذا النحو ، فلم يكن يستطيع ان يمضى فى تفكير أو روية أو حديث دون ان ينحرف يمينا أو شمالا ثم يعود الى طريقه الاولى ليعود الى الانحراف عنها ، ومن يدرى ! لعل الحياة الواقعة ولعل الحقائق او الامور المعقولة التى تعمل فيها عقول الناس لاتستقيم ولا تسمح بان يستقيم التفكير فيها ، وانما هى تنحرف وتعوج وتلتوى وتكره العقول على أن تسايرها فى الانحراف والاعوجاج والالتواء ، ولعل عقولنا نحن اوساط الناس يسيرة ساذجة ليست تامة التكوين ولا كاملة الاداة ، فهى ترى الاشياء سهلة ميسرة ، وتسلك فى التفكير طرقا معتدلة مستقيمة وتتعب من الانحراف والالتواء ، أى من التفكير الصحيح . ومهما يكن من شىء فقد كان هذا الاستطراد المتعب لازمة من لوازم صاحبى اذا فكر او كتب او تحدث . فاذا اضفت الى هذا صوته الذى لم يكن يعرف الخفوت ولا يحب الهمس ، واذا أضفت الى هذا انه صمم فى هذا المساء على ألا نركب عربة ولا نتخذ ترام ولا نستعين بأداة من ادوات الانتقال مهما تبعد بنا الطريق لانه قد ازمع ان نجن فى هذا المساء . وكان الجنون عنده ان نهيم فى الارض حتى اذا اجهدنا المشى ، استرحنا لحظة ثم استأنفنا الهيام حتى ينتهى بنا الاعياء الى اقصاه . اقول اذا لاحظت هذا كله ، واضفت بعضه الى بعض لم تشك فى انى كنت متعبا مكدودا حين بلغنا منزله فى أعلى الربوة مما يلى القلعة وقد تقدم الليل . وليس من جدال فى انى لو ملكت يدى ونفسى كما يقول الفرزدق لتخلفت عن مرافقته ، ولتركته فى بعض الطريق ، ولكنه قد احتاط لذلك عامدا أو غير عامد ، فأبى على أن أصطحب غلامى الاسود الصغير ، وقال ارفق به ودعه يسترح ، ولعل اخاك ان يحتاج اليه . وما دمت ستنفق الليل

معى ، وما دمت سأردك الى بيتك مع الضحى فلسنا فى حاجة الى رقيب يسمع ما نقول ؛ او يحصى ما نهذى به ، وقد لا نكون فى حاجة الى ان نسمع غطيطه حين يطول عليه حديثنا ، ويثقل عليه سهرتنا فيأخذه نومه العميق ، ويهوى به عن كرسيه الى الارض كما كان ذلك ليلة كنا نطيل الحوار فى بعض قضايا المنطق التى كنت تراها واضحة كل الوضوح ، وكنت أراها انا غامضة كل الغموض

واستطاع على هذا النحو ان يخرجنى من غير خادمى ، وان يحتكم فى أذنى وفى رأسى وفى رجلى كما أراد . حتى اذا انتهى بى الى داره نحو منتصف الليل كنت محطما او كالمحطم ، وكنت لا اتمنى الا مجلسا استريح اليه من هذا العناء ؛ وكنت واثقا انى لن ابلغ غرفته الحرام ولن اجلس على ذلك المجلس من الخشب تغطيه الوسائد . حتى انثنى على أحد جنبى وأستسلم للنوم

ولكنه لم يمكنى حتى من هذا ، فما كاد بابه يفتح لنا ، وما كادت لخادمته تهدينا بمصباحها الضئيل الى غرفته الحرام حتى اقبلت بما عندها . وليتها لم تفعل . فقد اقبلت بابريق الشاى ومن حوله قطع من فطير الريف . واقبل هو على الشاى يصبه فى الاكواب وهو يقول فى صوت ماكر : هذا هو الشاى الذى تعتمدون عليه فى اتفاق الليالى البيض حين يطلب اليكم الدرس ألا تناموا . والدرس ياسيدى يطلب الينا فى هذه الليلة ألا ننام ؛ فاشرب من هذا الشاى واستعن عليه بهذا الفطير حتى اذا اخذت من الراحة والغذاء والرى بنصيب اخذنا فى درسنا المفصل العويص

وقد كنت متعبا مكدودا ولكنى كنت جائعا ظمآن ايضا . فلم أجد قدرة على الامتناع عن اخذ ما كان يقدم الى من طعامه الثقيل ، وشرابه الذائد للنوم . وأقبل هو على ما حملت الفتاة ، فأصاب

منه فى غير رفق ولا اقتصاد ، حتى اذا أحس ان معدته قد استقرت فى جوفه ، وان اعصابه قد تنبهت بعد الخمود ، اخذ فى حديثه الذى كان يقدم بين يديه بهذه المقدمات الطوال الثقال التى كانت تلتوى بنا وتحملنا الوان العناء منذ العصر . وكان انتهاؤه انى الاخذ فى هذا الحديث بعد الجهد الذى لقيناه والمشقة التى احتملنا ساعات متصلة ، اشبه شىء بخلاص الام بعد ان ثقل عليها الوضع ، وابتلاها بالآلام المضنية المنهكة . وكان صوته وهو يأخذ فى هذا الحديث هادئا يحاول الرقة وتجرى فيه عذوبة مؤلمة بعض الشىء كأنه صوت المريض وهو يخرج من المرض او يدخل فيه . قال : اتعلم فيم ارقتك الليلة وكلفتك ماكلفتك من هذه الاهوال التى لم تكن تنتظرها ولا تحب ان تلقاها ؟ قلت : لا وانى لانتظران اعلم ذلك منذ عزمت على فى الخروج معك ، ولو انك استمعت لى واردت بى الراحة ، لالقيت الى حديثك منذ خرجنا ولارحت نفسك وارحتنى من هذا العناء الطويل . قال : لم يكن ذلك يستقيم ياسيدى فلكل شىء موعده وابانه . وهذا الحديث لايصلح له الا الليل اذا تقدم وتجاوز نصفه وغمر كل شىء بهدوئه العميق . على ان جهدك ان يذهب عبثا ، فانى اعرفك تحب المسائل المعضلة ، وتجد فى حل المشكلات لذة ، فاليك مسألة معضلة فواجهها كما تعودت ان تواجه مسائل المنطق والفلسفة والاصول . أيهما اهون ان يحتمل : الظلم ام الكذب ؟ ولست اخفى عليك ايها القارىء انى وجمت حين سمعت هذه المسألة ، ولم استطع ان اسرع الى الاجابة عليها . وظن هو انى افكر فأمهلنى لحظة ثم سالنى عن رأيى فقلت : لا ادرى لانى لا افهم معنى للسؤال ، فالظلم قبيح ، والكذب قبيح ، والخير للرجل الكريم الفاضل ان يتجنبهما معا . قال : فان لم يكن له بد من احدهما . قلت : دعنى من الامور العامة ، والق الى حديثك فى صراحة ووضوح فلعلى افهم عنك ولعلى استطيع ان ارد عليك . قال فى ضحك

هادىء : يظهر انك فاتر عن الفلسفة منذ الليلة . فلنواجه مشكلتنا من طريق غير طريق الفلسفة . ولانبئك قبل كل شيء بانى انما ارقت وارقتك معى هذه الليلة لانى سأصبح بطلا قبل أن ينتصف نهار الغد. وانا لا اريد ان انتظر البطولة نائما ولا غافلا ، وانما اريد ان انتظرها يقظان ، وان آخذ لها اهبتها واستعد لها كما يستعد الناس لعظام الامور . وانا اعلم انك ضيق بى وبهذا الكلام الذى لاينقضى والذى لايفصح عن معناه ، ولكنى اقسم لك جاهدا انى لا امزح ولا اهذى ولا اريد العبث ، وانما اسوق اليك حديثا كله حق وصدق وصواب فلن ينتصف نهار الغد حتى اكون قد بدأت بطولتى واقدمت على عمل ذى بال . ولست ازعم انى سأكون قد بدأت بطلا من طراز الاسكندر أو قيصر ، ولكنى سأكون بطلا على كل حال ، ساكون بطلا لقصة من القصص لتكن تمثيلا أو لتكن قصصا مرسلا ، ولكنى سأكتب الصفحة الاولى منها قبل ان ينتصف النهار غدا

وكان يمضى فى حديثه هذا مستأنيا مستثنيا حتى اخذت أسال نفسى امجنون هو : ولكنه اسرع فردنى الى شيء من الاطمئنان . قال : اتعرف ان نظام الجامعة يقضى على اعضائها الا يتزوجوا حتى يعودوا من أوربا ؟ قلت : نعم . قال : ألم يخطر لك ان هذه القاعدة قد تؤذينى وتضطرنى الى بعض الحرج ؟ قلت : وما انت وهذه القاعدة . قال فأنت تجهل اذا اننى زوج . وهنا ظهر على دهش صادق لانى كنت اجهل ان لصاحبى زوجا ، وما كان يخطر لى ان امرأة تستطيع ان تحتمل الحياة معه مهما يكن حظها من الصبر والحلم ومن العفو والقدرة على الاحتمال . وما كنت أستطيع ان اتصوره الا رجلا مضطرب الحياة ظاهر اضطراب التفكير ، ولكن قوة عقله وسعة علمه وذكاء قلبه هى التى تضطره الى هذا الاضطراب ، وتظهره فى هذا الاختلاط . وكنت ارى انه يقضى

نهاره كما رأيته يقضيه يعمل فى ديوانه قليلا ويلغو مع الناس كثيرا . ويحيا حياة خفية قوية متصلة قيمة الانتاج وينفق الليل بين القراءة والنوم

فلما رأى ما ظهر على من الدهش والانكار أغرق فى الضحك ، وقال لقد كنت تظننى طالبا مثلك احيا حياة الطلاب ، ولكنك تعلم انى موظف وان لى بيتا كبيرا وانى من أسرة غنية من أسر الريف . فكيف لم يخطر لك انى لم اكن استطيع ان استكمل ماينبغى لمثلى من الحياة الا اذا اتخذت لى زوجا . مهما يكن من شىء ياسيدى فأنا متزوج وقد ظفرت بالنجاح فى امتحان الجامعة ولا بد من ان امضى العقد اذا كان النهار ، ومن اصول هذا العقد ألا أكون متزوجا ، وألا تزوج حتى اعود . فانا اذا مضطر الى أحدى اثنتين . اما ان اكذب على الجامعة واتورط فى التزوير واتعرض لما يقتضيه الكذب والتزوير من الشر ان ظهر امرهما . واما ان اظلم امرأتى فأطلقها . فماذا ترى ؟ وكيف المخرج من هذه المشكلة ؟ واحب ان تعترف قبل كل شىء بانها مشكلة ممضلة حقا ، وبانها خليقة ان تكلفك ماكلفتك من الجهد ، وتحملك ماحملتك من العناء ، وتؤرقك مع صديقك ليلة كاملة . قلت فدعنا من الهزل ومن لغو الحديث واستقبل هذه المشكلة العنيفة بما ينبغى لها من الحزم والعزم ومن الروية والاناة . قال : فانى أنفقت وقتا غير قصير فى الروية والاناة ، وأنفقت جهدا غير يسير فى التماس الحزم والعزم ، وقد كاد ينتهى ما املك من الوقت ، وقد انتهى ماكنت املك من الجهد ، ومن اجل هذا دعوتك لاستعين بك على الخروج من هذا الحرج الذى لا ادرى كيف يكون الخروج منه ، ان من اليسير ان ازعم للجامعة اذا كان الصباح انى أعزب وان أرسل امرأتى الى الريف لتقيم فيه حتى اعود اليها ان أتيحت لى العودة . وما اظن ان هذا الكذب سيظهر ، وما احسب انه ان ظهر استتبع عواقب ذات خطر ، فما ذا يعنى الجامعة من امرى ان عرفت انى

متزوج وانى قد كذبت عليهـــا مادمت لا اصـــطحب زوجى الى حيث يجب ان افرغ للدرس ،وما دمت ساجعل بينها وبينى هذه الآماد البعيدة فى البر والبحر وقد يكون هذا الكذب مرذولا ، وقد يكون منافيا لاخلاق الذين يريدون ان يحيوا حياة العلماء ، ولكنى لن اكذب رغبة فى الكذب،ولا تعلقا به ، ولا حرصا عليـه ولا ايثـــارا لغش الجـــامعة وتضليلهـا ، وانما اكـذب ان كذبت رغبة فى العـلم ، وتهالكا عليه وحرصا على ان اغير حياتى واجعل لها معنى وقيمة وخطرا واثرا فى منفعة الوطن . والكذب مرذول الا ان ينتهى الى نفع والى نفع صحيح ، وان يحقق مصلحة ومصلحة قيمة ، فمـاذا ترى ؟اليس هذا الكذب خيرا من الظلم الذى اقدم عليه ان طلقت امرأتى مع انها لم تأت ذنبا ولم تقترف اثما ولم تدفعنى الى هذه الرحلة بل كرهتها أشد الكره ، ولكنهـا لم تصرفنى عنها لانها تؤمن بانى لا اعزم الا بعد تفكير صـادق ، وانتهاء الى رأى مصيب . وما اظنك تقترح على ان اصـــدق الجامعة وأظهرها على جلية الامر . فانى ان فعلت لم يكن لهذا مـن اثر الا ان تخيب آمالى كلهـــا ،وان استيئس مـــن رحلتى ، واطمئن الى هذه الحياة الخاملة الذابلة التى لا نفع فيها ولا غناء. وانا اعلم حق العلم انى لا املك هذه الشجاعة ولا احتمل هـذه الحياة وانى ان صرفت عن هذه الرحلة بعد ان مدت لى اسبابها وهيئت لى وسائلها ميت من غير شك . ميت بالمعنى الصحيح الواضح لهذه الكلمة ، سأقتل نفسى ان ملـــكنى الغضـب ، وسيقتلنى الحزن واليـأس ان اتيح لى الصبر والاحتمال ، فالغ هذا الفرض الغاء وامحه محـوا فليس لى بد من ان اكذب على الجامعة او من ان اطلق امرأتى لاكون صادقا ، فاختر لى واشر على .

قلت قد انسيت كلّ ماكنت اجد من تعب وجهد ، وانسيت الوقت وانسيت المكان الذى انا فيه ، وشاقنى عـــلاج هـذه المشكلة حتى ملك على امرى كله،وحتى احسست كلفا بالاخذ والرد

والحوار ما احسسته قط فى درس من دروس العلم ، وقد لايحسه شباب هذا الجيل الذى تعود الاستماع لمثل هذه المحاورات ، والاطلاع على مثل هذه المشكلات بعد ان اتسعت حياتنا وبعدت آفاقنا العقلية واشتد اتصالنا بالحضارة الغربية وقرأنا من أدبها وفلسفتها الشىء الكثير . قلت : فانى لا ارى اك الظلم بحال من الاحوال ولا افهم ان تحمل امرأتك ذنبا لم تجنه ولا ان تحمل نفسك هذا الاثم الثقيل ، ومع ذلك فانى لا ارضى اك الكذب ولا اعينك عليه ولاآمن عليك شره وأثاره السيئة . قال متضاحكا : فانت اذا ترضى لى ان اموت . قلت : بل ارضى لك ان تكون رجلا وان تؤمن بماتلح فى الدعوة انى الايمان به ، من أن ظروف الحياة اقوى من ارادة الانسان ومن ان المثل القديم لم يعد الحق حين قال : « لابد مما ليس منه بد » . ومن يدرى ، لعلك تستطيع ان تصور للجامعة امرك كما هو وان تحملها على ان ترضى منك هذا الزواج الذى لن يكون له فى حياتك الدراسية أثر كما قلت آنفا . قال : فانك تعلم حق العلم ان الجامعة لن تغير نظامها من اجلى ، وانى لم انجح وحدى فى الامتحان ، وان من ورائى اثنين يودان لو تقطعت بى الاسباب عن هذه الرحلة ليفوز بها احدهما من دونى . فأنا ان صدقت الجامعة ، مضيع برحلتى من غير شك واذا حيل بينى وبين هذه الرحلة فقد حيل بينى وبين الحياة واتصلت بى أسباب الموت فليس الى هذا الصدق من سبيل . وانت تخطىء ان ظننت انه تحمس الشباب او انه التعجل والتقصير فى التفكير ، فانا اعرف نظام الجامعة هذا قبل ان اقدم على الامتحان ، وانا افكر فيه منذ اعلنت الجامعة الى هذه البعثة ، ومنذ ظهرت نتيجة الامتحان خاصة . فليس الى هذا الصدق الذى تطلبه من سبيل . لن أعدل عن الرحلة ولن أصارح الجامعة بجلية الامر . قلت واذا ففيم تستشيرنى وقد اجمعت امرك ووطنت نفسك على الكذب ؟ قال : كلا ياسيدى لم اوطن نفسى على الكذب ولو قد

وطنت نفسى عليه لامعنت فيه ولاخفيت جلية الامر عليك ولاجتهدت فى اخفائها على نفسى، ولكنى قد وطنت نفسى على الظلم، فأنا أريد ان أكون صادقا، حين اتحدث الى الجامعة ، اذا كان الصباح ، وان اكون ظالما لنفسى ولامرأتى . قلت : فانى أرى فى هذا اثما بشعا واستباحة قبيحة للشر ، واعتداء على حق من لاتملك الاعتداء عليه . قال وهو يضحك حزينا : وانت مع هذا ازهرى تدرس الفقه وتعرف ان الطلاق مباح وانه ابغض الحلال الى الله ولكنه مع ذلك حلال لاخطيئة فيه ، ولا اثم على الذين يقدمون عليه . فأمر الزواج عندنا ليس الى امرأتى بعد ان قبلته وهو ليس اليها والى ، وانما هو الى وحدى ، فانا استطيع ان امسكه ان شئت واستطيع ان احل عقدته ان اردت ، وانا اريد ان احل هذه العقدة لا ايثارا للطلاق ولا رغبة عن امرأتى ولكن ايثارا لما هو خير من الزوج وان كانت خليقة بالحب والمودة والعطف ، ايثارا للعلم ورغبة فى رقى النفس والعقل ، قلت : فانى اخشى ان يكون هذا كله غرورا ووحيا من وحى الامانى ، وماادرى أيهما خير : هذا العلم الذى تتحدث عنه كانه شىء لايدرك الا اذا تكلفت له ماستتكلف من الشر ، ام هذه الزوج التى اصفتك ودها ومنحتك حبها ، ووقفت حياتها عليك وجعلها الله رحمة لك وسكنا . ومن يدرى ! لعل تحصيل هذا العلم الذى تتهالك عليه وتستبيح فى سبيله الظلم ، ان يكون ميسر الك وانت مقيم فى مصر بين اهلك لاتفارقهم ولا تتكلف لهم ظلما ، ولن تكون اول من حصل العلم دون أن يرحل اليه ، والعلم يعير الينا البحر من أوربا ، وهو يسعى الينا فى دورنا ، ونحن نستطيع ان نلتمسه فيما يلقى من الدروس وفيما يؤلف من الكتب . وانى لاخشى الا يكون حب العلم الخالص هو الذى يغريك بهذه الرحلة التى لن اتحرج من ان أراها آثمة ، وانما يغريك بها سأم الاديب والحرص على تغيير الحياة ، والطموح الى منصب الاستاذ ،

وهذا كله يغرى ولكنه يجب ان يكون أهون على الرجل الكريم من أن يدفعه الى الظلم والاثم والعدوان . قال : ياسيدى انك تضيع وقتك ووقتى ، فلن تقنعنى بالعدول عن الرحيل ، ولا باظهار الجامعة على جلية الامر . وليس الى اقتناعى بالكذب على الجامعة سبيل . أتدرى لماذا أهون عليك ؟ فانى أرى هذا الكذب مباحا وما أكثر ما أبيح لنفسى أشياء تحرمونها انتم على انفسكم ، ويحرمها عليكم الدين وما تواضعتم عليه من الاخلاق . انا لااكره هذا الكذب لانى اراه اثما ، وانما اكرهه لانه سيدفعنى الى آثام امقتها حقا ، والى ظلم ارى ان ظالم الطلاق اهون منه . انى لاعرف من امر اوربا شيئا كثيرا . وقد قرأت غير قليل مما ترسل الينا من القصص ، وسمعت غير قليل من انباء الذين يرحلون اليها ويقيمون فيها . وكل هذا ينبئنى بانى لن اقاوم الحياة الاوربية وآثارها فى نفسى كما ينبغى للرجل الوفى لزوجه ان يقاومها . فانا واثق ياسيدى بأنى سآثم وسأنغمس فى الخطايا وأنا اريد ان احتمل وحدى هذا الاثم وأنغمس وحدى فى شر هذه الخطايا . وانا ابيح لنفسى ان اكذب على الجامعة ، ولكنى لاابيح لنفسى ان اكذب على امرأتى كذبا متصلا ، فازعم لها انى وفى امين ، على حين انى قد غرقت فى الخيانة الى اذنى . قلت وقد اقشعر جلدى واضطرب قلبى واخذنى غضب عميق لاأكاد أجهر به ، ولا أكاد أخفيه : فهل تعلم انك تقول منكرا من القول ، وانك تقدم على امر بشع شنيع ، وان حبى لك يحملنى على ان أتمنى ما استطعت أن تصرف عن رحلتك هذه صرفا ، وان تكره على الاقامة فى مصر اكراها . انت تعلم انك ستأثم فى اوربا ثم تقدم مع ذلك على السفر اليها ، وتشتد فى هذا السفر . فانت اذا تريد الاثم وتتعمد الخطيئة وتصر على المعصية ، ولكن كلمة المعصية هذه لم تكد تبلغ اذنيه حتى جن جنونه ، واندفع فى ضحك عريض ، عال متصل ، أخرجه عن طوره وكاد ينتهى به الى الشر فى جسمه وفى عقله ايضا . وكان هو يضحك ويضطرب اضطرابا عنيفا من شدة الضحك وانا واجم ذاهل

مبهوت أسأل نفسي اول الامر عن هذا الخبل الذى مسه . ثم تثوب الى نفسى قليلا قليلا واذا انا احس العمامة التى على راسى وأحس الجبة والقفطان اللذين اسبغا على جسمى اسباغا ، واذكر انى شيخ وانى ازهرى ، وانى تحدثت الى صاحبى حديث رجل الدين ، وان صاحبى يسخر منى ويهزأ بى ويردنى الى مكانى الاول ، ويرى ان امله فى قد خاب وان اختلافى الى الجامعة واستماعى للاساتذة الاوربيين وتحدثى اليه واستماعى منه ، وما قرأنا من كتب اوربية ، وما كنت اتكلف من التجديد والخروج على الازهر والازهريين والتنكر له ولهم ، وما كنت ارمى به من المروق وايثار البدعة ، وما كنت اجد من اللذة حين احس ان الناس يرون فى المروق وحب البدع ، كل هذا لم يكن الاغشاء رقيقا وطلاء يسيرا لايكاد يثبت للتجربة الاولى ، فاذا جد الجد ، وكان اول درس من دروس الحياة العاملة التى ليست كلاما ولا غرورا ، فأنا الشيخ الازهرى القح الذى حفظ من كتب الدين وورث ماورث من آثار القرون ، واحتمل فى قلبه الضئيل وعلى كتفيه الصغيرتين ، ثقل السنين التى توارثها الاجيال اثناء ثلاثة عشر قرنا .

أأقول الحق أم أخفيه ، ومال لااصطنع الشجاعة ولا احمل نفسى على بعض ماتكره ، وان الحياة لتحملها على ماتكره فى اكثر الاحيان . لقد استحييت من صاحبى ، واستحييت حتى انتهيت الى الخزى ، واحسست كأن رأسى ذاب فى عمامتى ، وكأن هذه العمامة لم تكن تستقر على شىء . وأخذت أتضاءل فى جبتى وقفطانى . حتى خيل الى انهما يستقران على هذا الكرسى لايملؤهما شىء . واخذت قطرات من العرق تسيل على جبهتى فتبلها . وكادت الرعشة ان تجرى فى جسمى المتضائل المضطرب . كل هذا لان صاحبى ظهر على جلية امرى . وعرف أنى مازلت أزهرى النفس والقلب والعقل . ارى الانغماس فى الحياة الاوربية اثما واشفق على صاحبى منه ، وارى الاصرار على الخطيئة

وتعمد الاقدام عليهـــا كفرا ، واخاف على صاحبى عواقبه .
واذا فأى فرق بينى وبين هذا الشيخ العتيق الذى كان يعرض بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده فيتغنى فى بعض دروسه بهذه الجملة التى شاعت والتى كنا نتندر بها ، ونضحك منها . وكنت انا أشد الناس تندرا بها وضحكا منها ، « ومن ذهب الى فرنسا فهو كافر او على الاقل زنديق » .

كذلك قال الشيخ وبذلك كنا نتندر فى الازهر ، ومن ذلك كنا نضحك فى انديتنا الحر ذالتى كان الازهريون يرونها أندية ابتداع وضلال . فقد اصبحت انا كهذا الشيخ ارى ان من ذهب الى فرنسا فهو كافر او على الاقل زنديق . ومع ذلك فان اساتذتى من الفرنجة فى الجامعة يرون انى حر الرأى ويشفقون على من حرية الرأى هذه ، وكنت أنا أرى انى حر الرأى وأغتبط بما يصيبنى فى سبيل هذه الحرية . فقد كنت اذا اكذب على نفسى ، وكنت اذا اخدع أساتذتى ، ولم اكن الا شيخا ازهريا قحا يرى ان من ذهب الى فرنسا فهو كافر او على الاقل زنديق .

كذلك كنت افكر مستخزيا متضائلا من الخزى بينما كان صاحبى يغرق فى الضحك ، حتى اذا اعياه اضطراب جسمه هدأ بعض الوقت يتكلف الهدوء ، ثم لا يلبث ان يعود اليه الضحك العنيف فيهزه هزا عنيفا وهو يردد كلمة المعصية هذه ويقول مازلت تؤمن بالطاعة والمعصية وتردد هاتين الكلمتين ، ومازلت تفكر فى الكفر والايمان .

ثم يمضى فى الضحك وامضى انا فى الخجل والاستخزاء . ومع ذلك فلو انى كنت اتحدث الى رجل هادىء عادى غير غريب الاطوار ، لما انكرت من حديثى شيئا ولما رأيت على نفسى منه بأسا ، فلم أكن ارى الذهاب الى فرنسا كفرا ولا زندقة وانما كانت طبيعتى كلها تثور لهذه الجرأة الوقحة ، التى كان يقدم عليها صاحبى فى غير تكلف ، وهو يتحدث عن الخطايا والآثام وانغماسه

فيها وتهيئه للانغماس فيها . ولقد مضت أعوام وأعوام وذهبت الى أوربا مرات ومرات وأقمت فيها . فأطلت الاقامة ، وما زلت اليوم كما كنت فى تلك الليلة تثور طبيعتي كلها اذا سمعت من يتحدث فى هذه الجرأة الوقحة عن الخطايا والاثام والتهيؤ للانغماس فيها . ولا بد من أن أمضى من قول الحق الى أقصاه ، فقد وادعت صاحبى وصانعته واجتهدت فى أن أقنعه بأنى لست شيخا أزهريا قحا ، لم أحبب اليه فراق امرأته ولم أعنه على التهيؤ للانغماس فى الخطايا والاثام . ولكنى فقدت القدرة على مقاومته . وعجزت عن محاولة اقناعه بما كنت أرى ، لا لانى ملت الى رأيه ، بل لانى كرهت أن يرانى شيخا أزهريا قحا يؤمن بأن من ذهب الى فرنسا فهو كافر أو على الاقل زنديق .

وكذلك يسيطر الغرور على أنفس الشباب فاذا هم يتكلفون مالا يحسنون ويحملون أنفسهم ما لا يطيقون ، ويتكلفون هذا النفاق الغريب يخفون به مافى نفوسهم من أصول الخير ويظهرون به ما يرغبون فيه من مظاهر التجديد .

ثم يرتفع الضحى واذا صاحبى يردنى الى بيتى ويفارقنى ليذهب الى الجامعة ويقول فى لهجة ساخرة لاذعة : سألقاك مع المساء ، فلا بد من أن نستأنف حديث الطاعة والمعصية ، فاذا لقينى فى آخر النهار علمت منه أن الجامعة قد اختجزت له مكانه على احدى السفن ، وأنه مرتحل بعد أسبوع وأن زوجه قد ارتحلت ظهر اليوم الى الريف وأن طلاقها سيبلغها اذا كان الغد .

٩

يونيو فى سنة ...

بينك وبينى أيها الصديق العزيز فتور أحسسته أمس حين التقينا فى قهوتكم هذه التى تزدحم بالشيوخ ، ويشتد فيه لغطهم بالفقه ، والنحو ، والادب وتختلط أصواتهم بهذه الضوضاء العنيفة التى تصدر عن الناس وعن النرام وعن هذه العربات التى

تخرج مع المساء من درب الجماميز الى شارع محمد على ، لتنبث فى أحياء القاهرة موزعة عليه ما يحتاج أهلها من اللحم . وقد كان هذا الضجيج المختلط خليقا أن يحول بينى وبين الشعور بهذا الفتور، حتى يطول الحديث بيننا ،ولكنى لم أكد أصافحك حتى أحسست الفتور فى يدك ، وتأكدت انه صورة للفتور فى نفسك ، فلما تحدثنا فصل لى صوتك الهادىء ما أجملت يدك ، واستيقنت أن بينك وبينى شيئا .

ولولا أصحابك من الشيوخ هؤلاء الذين أحب أن أراهم من بعد ، وأكره أن أجلس اليهم ، وأن يتصل بينى وبينهم الحديث، لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء ،وما كانوا يشغلوننا به من أحاديثهم عن الازهر ومدرسة القضاء ودار العلوم ، وما كانوا يشغلوننا به من تهالكهم على أصحاب الطعام حين كانوا يمرون بما يحملون من الفطير والشواء وما يشبهها من هذه الاطعمة الرخيصة ،لولا أصحابك الشيوخ هؤلاء لما اتصل الحديث بينك وبينى أمس الا فى هذا الفتور الذى تبينته فى يدك وفى صوتك، وفى وجهك . ولما انصرفت عنك الا وقد رددت الامر الى ما كان عليه ، من هذا الصفاء القوى الذى لاتكلف فيه ، ولا احتياط. ولكنى جعلت أنتهز الفرص لاخلو بك ولتفرغ لى فلا تسنح ، ولم يكن من اليسير أن أطلب اليك النهوض معى لبعض الشئون كما تعودنا أن نفعل ، فقد كنت على ثقة بأنك ستعتذر ، وستتعلل بأنك متعب مكدود من ليلتك البيضاء ، التى قضيتها معى أمس .

على أنى لم ألبث أن تبينت أنى لم أكن مخطئا فيما كنت أقدر حين رأيتك تتعجل العودة الى بيتك ولا تحفل بالحاحى عليك والحاح أصحابك فى أن تبقى معنا كما تعودت أن تبقى حتى يتقدم الليل ، وتقل الضوضاء فى الشارع ، ا يطيب الحديث فى هذه القهوة الجميلة .

ولقد هممت أن أنهض لارافقك الى بيتك ، ولكنت أظن أن فى

مرافقتك هذه الدقائق ما يتسع لى أن أدير الحديث بيننا حتى أبلغ هذا الفتور ، وكنت واثقا بأنى ان بلغتـــه فلن أدعه حتى أمحوه محوا ، وان أرقتك ليلة أخرى . ولكن الله لم يرد ذلك، أو لم يرده أصحابك الشيوخ ،فقد نهض صاحباك هذان اللذان طالمـا نغصـا على مجلسى معك فرافقـاك ، واضطررت أنا الى التخلف ، والله يعـلم الى أين ذهبتم ، فلست أشك فى أنهما لم ينصرفا عنك حين انتهيت الى بيتك ، وأكاد أعتقـد انك انما تكلفت الانصراف وتعجلت العودة لتخلص منى وممن كـان من أصحابك ، ولتفرغ لصـديقيك هذين فتقضى معهما شـطرا من الليل غير قليل ، فيم تعودتم أن تنفقوا ليلكم فيه من عبث وحديث

ولولا أنى كرهت أن أثقـل عليـك وعليهـما وأن أوصـف بالالحاح ، لتبعتكم لاعلم علمكم، ولاسقط عليكم بعـد أن يستقر بكم المجلس ، ولاتخذ موضوعا للصراع بينهما وبينى ، فلاأنصرف عنك حتى أصرفهما ، وماأوسع حيلتى حـين أريد أن أصرفهـما عنـك ، وأى شىء ايسر من أن آخذ معك فى بعض الحديث، الذى لا يحبانه ، ولا يسيغانه ، ولا يفهمانه ، فاذا أنت تجيب واذا أنا أمضى فى الحديث ، واذا هما يظهران الضجـر ، ثم يظهران الضجر الشديد ، ثم يتثاءبان ، ثم يؤذنان بعزمهما على الانصراف ثم ينصرفان ، ولكنى لم أنشط لشىء من هذا لانى لم أجد منك مايعيننى على النشـاط اليه ، ولانى لم أجد من نفسى مايدفعنى الى هذا النشاط . فقد كنت أنت فاترا ، وكنت أنا مثقل النفس بالهم ، مملوء القلب بالحـزن ، والله يعلم ما احتجت اليك فى يوم أو ليـل كما احتجت اليك أمس ، وما افتقدتك فى يوم أو ليل كما افتقدتك مساء أمس لقد رأيتكم تنهضون ، وأتبعتكم بصرى ، وأنتم تسعون الى درب الجماميز . حتى اذا انعطفت بكم الطريق ، أثبت بصرى فى الفضاء أمامه كأنما كنت أريد أن ينعطف معكم وأن يبلغكم وأن يدعوكم الى وأن يردكم عـلى ، ولكن بصرى لبث ثابتا فى الفضاء ، لم يستطع ان يتبعكم ولا أن يبلغكم ولا أن

يؤدى الى أنفسكم ولا الى نفسك أنت خاصة رسالة نفسى ، فرددته الى خائبا محزونا ، ومكثت فى قهوتكم هذه أنظر ولا أكاد أرى ، والفى السمع ولا أكاد اسمع ، ويتحدث الى من حولى فأجيب حينا ، واذهل أحيانا عن الجواب . وقد تفرق الناس من حولى كما تعودوا أن يتفرقوا حين كاد الليل أن ينتصف وخلت القهوة لى ولجماعات ضئيلة تفرقت فيها حول بعض اللعب ، فانفقت فيها ما استطعت ان انفقه من الوقت ، واستطيع أن أنبئك صادقا بأنى دهشت حين سمعت الخادم ينبهنى الى أن قد آن أوان الاغلاق ، فنهضت كارها متثاقلا ، واخذت الطريق التى أخذتموها ، فى درب الجماميز ، اسعى امامى وكأنى كنت أقدر اننى سألقاك عائدا الى بيتك مع أحد صاحبيك ، فآخذك منه قهرا أو أنفق معك بقية الليل ، هائمين فى القاهرة ، أو لاجئين الى دارى او الى هذا السطح الجميل الهادىء الذى ينبسط امام بيتكم الصغير . وكنت كالمستيقن بأنكم انما ذهبتم عند أحدكم فى هذا البيت الذى يسكنه غير بعيد من بيتى عند جامع ابن طولون ، فسمرتم ماشاء الله ان تسمروا وهزأتم شيوخكم فى الازهر ما شاء الله ان تهزأوا ، وذكرتم من انباء صاحبكم .. ما شاء الله ان تذكروا ، وتناشدتم الشعر وهجا بعضكم بعضا ، واثنى بعضكم على بعض ، ثم آن لكم أن تتفرقوا فبقى أحدكم فى بيته وخرجت انت مع صاحبك تسعيان فى هدوء الليل الساكن وتمضيان فيما كنتم فيه من لغو ، وتضحكان من هؤلاء السكارى الذين يتخبطون فى هذه الاحياء الوطنية حين يعودون الى بيوتهم آخر الليل ، حتى اذا بلغتما بيتك آويت اليه ، ومضى صاحبك وحيدا ، يسرع فى هدوء الليل كأنه السهم ، حتى يبلغ داره فى أقصى الظاهر .

كنت أقدر هذا كله واكاد اثق به ، واكاد لا اشك فى ان سألقاك مع صاحبك فى بعض الطريق ، والله يعلم ما سمعت وقع أقدام

من بعد ، الا خيل الى انها اقدامكما ولكنى قطعت درب الجماميز حتى انتهيت الى السيدة دون ان القاكم . ثم مضيت نحو جامع ابن طولون ، فلم القكما ، ثم انعطفت حتى مررت ببيت صاحبك فلم القكما ، ولم أر فى البيت مايدل على يقظة ، ولم اسمع منه ما ينبىء باتصال السمر والحديث .

فمضيت فى طريقى يائسا من لقائك محزونا لهذا الفتور الذى لم استطع ان امحوه حتى انتهيت الى بيتى ، وليتنى لم انته اليه لقد كنت ذاهلا حين بلغت البيت فدققت الباب كما تعودت أن أفعل وانتظرت ، ثم دققته مرة أخرى ومرة ثالثة ، وكان الصوت يتردد فى هذه الدار ، ثم يعود الى فينبئنى بشىء لا أكاد أفهمه حتى اذا كانت الطرقة الثالثة عاد الصوت الى ينبئنى بما فهمته وارتعت له ، عاد الصوت الى يقول لى انك لاحمق ، فيم تطرق الباب وليس من ورائه من يسمع لك ، ولا من يسرع اليك ، لقد تحمل من كان فى البيت واصبح البيت خاليا فارغا هادئا ينتظر مقدمك لتملاه وتعمره وتذيع فيه الحركة لا تعد طرق الباب ، فلن يستجيب لك احد ، ولكن اخرج المفتاح وادره فى القفل امامك ، فاذا انفتح الباب لك ، فادخل واغلقه من دونك أو لا تغلقه فمن يدرى لعلك لا تستطيع مصاحبة لهذه الوحدة المروعة فى هذا البيت الذى لم يتعود الفراغ . لن تهديك الخادم الصغير بمصباحها الضئيل كما تعودت أن تفعل . فأنت تعلم انها سافرت مع سيدتها ، فأخرج من جيبك علبة الثقاب واضىء لنفسك ظلمة الطريق واذهب الى أى الوجهين شئت ، واذهب الى غرفتك الحرام فلا بأس عليك من الالتجاء اليها ، ان يبلغك فيها صوت ، ولن تنتهى اليك فيها حركة . ولن تتحدث فيها الى صديقك ، ولن تلقى فيها الا كتبك التى لا تحصى . ومن يدرى ! لعل نفوس المؤلفين لهذه الكتب قد أقبلت جماعات من أعماق الزمن ومن اقطار الارض لتؤنس وحشتك فى هذه الغرفة الخالية . واذهب ان شئت الى غرفة نومك فان ترى فى السلم سراجا مضيئا ولن ترى اذا انتهيت الى اعلى السلم خادمتك الصغيرة مستلقية تغالب النوم

وتنتظر مقدمك . ولن ترى فى غرفتك امرأتك فى سريرها تتكلف النوم وهى مستيقظة ، ولكنها لا تريد أن تؤذيك ، ولا ان تشق عليك ولا ان تلقى فى روعك انها تأرق حتى تعود الى غرفتك . فالله يعلم انها لا تأرق الا انتظارا لك ، وشوقا اليك ، ولكنك خليق أن تسىء الظن وان تقدر انها انما تأرق لتحصى عليك الساعات . تستطيع الآن أن تدخل هذه الغرفة لا مترفقا ولا محتاطا فلن توقظ أحدا ، ولن يحس مقدمك أحد ، ومن يدرى ! لعل ظلا من امرأتك قد أقام فى هذه الغرفة ينتظر مقدمك ويأبى ان يفارق هذا البيت حتى تفارقه انت لتعبر البحر .

نعم عاد الى صوت الطرقة الثالثة بهذا الحديث الطويل ، فى لحظات لا ادرى اكن طوالا ام قصارا ، ولكن الذى اعلمه هو انى لم اخرج المفتاح ولم ادره فى القفل امامى ، ولم يفتح لى الباب ، وانما لبثت قائما امام البيت بعد ان تردد هذا الحديث فى اعماق نفسى ، فملأها حزنا ووحشة ورعبا ، وأكاد أكتب وندما ، ولكنى لا اريد ان اعترف بأنى أحسست الندم .

ولبثت قائما امام البيت اسأل نفسى أأقدم ام احجم ؟ أأدخل الدار ام انصرف عنها . ثم لا اخفى عليك لقد عجزت عن الاقدام وكرهت أن أفتح الباب ، ولم احس شوقا الى لقاء الظلال ، ظلال العلماء والادباء والفلاسفة ، قد اقبلوا يؤنسون وحشتى فى الغرفة الحرام . ولم اجد جلدا على ان القى ظل امرأتى فى غرفة نومى ، وانما استحييت منه أشد الاستحياء ، لم ادخل الدار وانما انصرفت راجعا أدراجى ، ومضيت اهيم فى الطريق أمامى ، اخرج من شارع لادفع الى شارع آخر ، لا احفل بما قد يظنه بى هؤلاء الخفراء والشرطيون الذين لا اشك فى انهم كانوا ينكرون شخصى الهائم فى مثل هذه الساعات المتأخرة من الليل ، ولعل منهم من هم ان يسألنى عن امرى ، ولكنه لم يجد على من مظاهر الريبة ما يغريه بهذا السؤال ، فخلى بينى وبين الطريق .

وما زلت أهيم وأهيم فى غير وجه حتى احسست يقظة الناس من حولى ، وسمعت أصوات المؤذنين تتجاوب بالدعاء الى الله فثابت الى نفسى بعض الشىء مع ضوء النهار ، وتكلفت فى مشيى ومظهرى ما يصرف عنى كل ريبة أو شك ومضيت فى هيامى ، ساعة وبعض ساعة ، ثم انظر فاذا انا عند قهوتكم هذه التى التقينا فيها مساء الامس . من اين جئتها ، وكيف انتهيت اليها ، لا ادرى ولكنى قد بلغتها وبلغتها متعبا مكدودا ، وما كدت أرى هذه الكراسى ينسقها الخادم فى شىء من الكسل والفتور حتى أحسست كأن هذه الكراسى تدعونى الى الراحة ، وحتى رأيتنى استجيب لدعائها ، واسرع الى الجلوس ، واطلب الى الخادم ان يحمل الى الشاى . ومن قهوتكم هذه اكتب اليك الآن ايها الصديق . وكنت اريد أن اتحدث اليك عن هذا الفتور الذى احسسته منك أمس لامحوه ولاتم معك الحديث الذى كنا فيه والذى قطعته أنا بهذا الضحك المفاجىء السخيف الذى دفعت اليه دفعا والذى أفسد الامر بينك وبينى . ولكنى لم أحدثك الى الآن الا عن نفسى وعن ليلتى البيضاء الثانية التى قضيتها فى غير راحة ولا امن ولا هدوء . على حين لهوت انت مع صاحبيك ثم استمتعت بالراحة والنوم ، وها انت ذا الآن تستقبل النهار نشيطا مستريحا مبتسما للحياة ؟ تريدان تمضى فيما تعودت ان تمضى فيه من القراءة و الدرس ، أو تريد ان تخرج للقاء صاحبيك احدهما أو كليهما ، أو تريد ان تنتظرهما فلعلهما ان يزوراك ليخرجاك أو ليبقيا معك . ألست ترى انك أثر مسرف فى الاثرة وانك تترك صديقك يحتمل وحده اثقال الشقاء ؟ ألست ترى ان من حق صديقك عليك ان تسرع اليه فتسمع منه ، وتقول له ، وتسليه وتواسيه ، فانه سيشقى وحده دهرا طويلا حين يعبر البحر الى تلك البلاد التى ليس له فيها صديق ؟

سأرسل اليك هذا الكتاب مع خادم القهوة وسأنتظر بعد ارساله

ساعة فمن يدرى لعلى أن أراك مقبلا مع غلامك الاسود الصغير . . .

دخل على بهذا الكتاب غلامى الاسود الصغير هذا وانا اتهيأ للخروج وكنت كما قدر صاحبى على موعد من صديقى لنذهب الى دار الكتب . ولكن الغلام لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب على فى لهجته الاسوانية التى كانت تضحكنى عادة لانها تجعل القاف غينا والغين قافا والتى تضحكنى اليوم وانما آذتنى وملات صدرى حرجا . لم يكد يفرغ من قراءة هذا الكتاب حتى خرجت معه ولكن لا الى قهوة دار الكتب حيث كان ينتظرنى صديقاى، بل الى قهوة الزاوية حيث كان ينتظرنى صاحبى هذا الشقى .

١ ❖

الم اقل لك اول امس انى سأصبح بطلا قبل ان ينتصف النهار من غد ؟ فانى قد صرت بطلا منذ أمس وما اظنك تمارى فى ذلك بعد أن قرأت الكتاب الذى ارسلته اليك منذ حين . قال ذلك وضرب المائدة امامه بعصاه ضربا خفيفا ، فلما اقبل الخادم طلب اليه ابريقا من الشاى ، ثم استأنف حديثه متعبا مكدودا وفى صوته شىء غير قليل من التكسر والفتور . قال : نعم لقد صرت بطلا منذ امس ، بطلا لقصة قد تكون كلها جدا وقد تكون كلها هزلا وقد تكون مزاجا من هذا وذاك ولكنها قصة لابد لها من بطل على كل حال ، وقد اردت أو أرادت الظروف أو أراد القضاء الخفى أن أكون هذا البطل . فليس من الاشياء الهينة ان يقدم الرجل على طلاق امرأة يحبها ويؤثرها ويعرف لها جميلا لا يستطيع ان يقدره ولا ان يكافئها عليه . ليس هذا من الاشياء الهينة ولا سيما حين تكون هذه المرأة كريمة النفس رضية الخلق طاهرة القلب نقية الضمير لا يأخذها زوجها بخطيئة ولا يتعلق عليها بسيئة ولا يلقى منها الا ما يسره ويبره ويرضيه ، ومع

ذلك فقد أقدمت على هذا الشيء الخطير ايثارا للعلم وان شئت فقل ايثارا لرقى الدرجة وارتفاع المنزلة ، وان شئت فقل اجتنابا للكذب على الجامعة وفرارا من الخيانة المكنة ، بل الراجحة ، بل المحققة . . وأنا اعلم انك قد انكرت على هذا وانك كنت تجادلنى فيه ، ولكن تلك الضحكة التى لقيتك بها حين انتهيت الى بعض الحديث قد قطعت على وعليك هذا الجدال وكادت تفسد مابينك وبينى من الامر .

فالآن وقد قرأت كتابى وعرفت من امرى ماعرفت وزال من نفسك هذا النفور الذى كنت أحسه امس فقد نستطيع ان نعود الى هذا الحديث لتعلم انى لم اكن مخطئا فيما كنت اعتزم وانى لست مخطئا فيما صممت عليه من فراق امرأتى قبل أن أرحل الى اوربا . واقبل الخادم يحمل الشاى فملأ منه قدحا لى وقدحا له وهو يقول هذا خامس اقداح الشاى التى شربتها منذ بغت هذا المكان فى اول النهار .

ثم عاد الى حديثه من حيث انقطع حين كنا نتحاور فى داره ، فقال : لقد كنت تلومنى على انى اقدر الاثم وافكر فيه واعلم منذ الآن انى سأقترفه وأتهيأ بفراق امرأتى لاقترافه ، وكنت ترى الاصرار على هذا كله خطيئة بل كفرا وخروجا من الدين ، وكان حديث الكفر يدهشنى لانى لم اكن انتظره منك بعد أن عرفتك حر الرأى غاليا فى التجديد . فلا تغضب ان اظهرت هذا الدهش ، وعد بنا الى خلاصة الحديث فأيهما خير ؟ ان يعرف الانسان مكانه من القوة والضعف ونصيبه من القدرة والعجز ، وان يحتاط لما يعرف من ذلك فلا يقترف من الآثام ولا يجترح من السيئات الا مالا يجد منه بدا ولا عنه منصرفا . ام أن يخدع الانسان نفسه ويغره بها الغرور فيضيف اليها الخير وليست بخيرة ويثبت لها الفضيلة وليست بفاضلة ويحملها ما تطيق وما لا تطيق ، ويقترف من الآثام مايستطيع ان يجتنبه ويتقى التورط فيه . وما رأيك فى اتى أعرف من نفسى مواطن الضعف واقدر ان الحياة الجديدة فى ذلك

الذى أنا راحل اليه ستمحو منها هذا المقدار اليسير الذى بقى لها من رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والحرص على ماتواضع الناس على انه الخير، وستغمرنى امواجها الزاخرة المصطخبة فلا أقوى على دفعها ولا مقاومتها وانما اعيش كما يعيش الناس وآتى من الخير القليل والشر الكثير مايأتون . فان صارحت نفسى بالحق وأخذتها بأن تحتمل وحدها أوزار اعمالها كنت خاطئا مجرما فى الخطيئة وكافرا مسرفا فى الكفر . فاذا ضللت نفسى تضليلا وغررتها تغريرا وزينت لها وللناس انى ساكون فى فرنسا خيرا مما أنا فى مصر تقيا نقيا وبرا طاهر القلب ، وانا اعلم ان ذلك لن يكون مهما احاوله واعلم قبل ذلك لن أحاوله لانى لن أستطيع التفكير فى محاولته ، فان عمدت الى هذا التضليل والتغرير برئت من الخطيئة ونجوت من اثم الكفر والمروق . ألست ترى فى هذا النحو من التفكير والفهم والحكم عوجا والتواء ؟ قلت : لا ادرى ولكنى اوثر للرجل ان يقع فى الخطيئة أن لم يكن له بد من الوقوع فيها على غير علم بذلك ولا تهيؤ له ولا تفكير فيه ، وأرى فى هذا الاستعداد للاثم بدأ فى اقترافه وفى هذا التهيؤ للاساءة شروعا فى الاساءة وفى هذا التفكير فى الشر قبل ان يقع مع ان من الممكن الا يقع استعدادا رديئا للشر والحاحا آثما فى دعائه ، وقد كان يحسن الا تدعوه . والامر لايقف فى رأيى عند الدين ولا عند الكفر والايمان ولا عند رعاية العادات والاحتفاظ بالتقاليد والاخلاق ، وانما هو يتجاوز هذا كله الى شىء لاادرى كيف اصفه ، ولكن صورته تقع من نفسى موقعا سيئا . فقد يخيل الى ان الانسان المتحضر المثقف خليق ألا يتجرد ولا يعرى حتى امام نفسه ان وجد الى ذلك سبيلا . وقد يخيل الى ان حياء الرجل المثقف من نفسه هو خير انواع الحياء وارقى منازله . وقد يخيل الى ان فى مواجهتك لهذا الشر الذى لم تعرفه ولم تدفع اليه بعد وفى تأهبك له ، شيئا من الخروج عن هذا الحياء الذى لاينبغى للرجل المتحضر المثقف ان يبرأ منه

قال : فانت تريد ان تقول انى وقح امام نفسى ، فليس غريبا ان اكون وقحا امام الناس ! قلت فى شىء من التحفظ : هو ذاك ، بل ان فى الامر ماهو اغرب من هذا ، فانك لاتظهر وقحا امام الناس ، وما اعرف ان احدا اساء الظن بك او شك فى سيرتك او رماك بالخلاعة او اتهمك بالمجون ، فانت اذا تظهر للناس غير ماتضمر ، وانت اذا تكاشف الناس بما لاتكاشف به نفسك ، وانت اذا خليع ماجن ، ولكنك تظهر للناس انك صاحب جد واحتشام . قال وقد عاد اليه نشاطه واستأنف ضحكه العريض : فانى ياسيدى خليع ماجن ، ما ارى فى ذلك عيبا وما اشك فى انى عظيم الحظ منه . واذا اخفيت ذلك على الناس فما اخفيه الا اتقاء لشر الناس وايثارا لمنفعتى ليس غير . فقل انى وقح فى السر ، وقل انى رجل لا حظ له من حياء ، فانت ان قلت ذلك لم تعد الحق ولم تؤذنى ، لانك لست كغيرك من الناس ، ولانك لاتملك او لاتستطيع ان تؤذينى وأن تفوت على حظى من الخلاعة والمجون . وانا على هذا كله ارى انى اقرب الى الخير من قوم لا يظهرون خلاعة ولا مجونا ، ولا يكشفون للناس ولا لانفسهم عما يطوون من سرائر بغيضة ونيات آثمة خبيثة . فأنا اريد ان احتمل وحدى وزر خلاعتى وثقل مجونى ، وانا اعلم ان حساب ذلك بينى وبين ضميرى او بينى وبين الله ، ولكنى لااحب ان امسك امرأتى فاحملها ثقل ما اقترف من الآثام والسيئات ، واخونها وانا ازعم لها انى وفى . انى لاعلم انى ماخنتها منذ اتخذتها زوجا على كثرة ما نازعتنى نفسى الى الخيانة ، ومن يدرى ! لعل حظى من الحياء امام نفسى اكثر مما تظن . ومن يدرى ! لعل حظى من هذه الاخلاق الاخرى التى تعصم الرجل من الخلاعة والمجون اكثر مما تظن انت . وانى لاقيس نفسى الى صاحبك هذا الشيخ يظهر بالاجازة التى تجعله من علماء الدين وتضمن له اجرا وسيرعة فى الحياة ويمكنه من التزيد على نفسه ، حتى اقدم عنى ما تعلم ومما لا تعلم من اثم

والخطايا والخصال التى لاتلائم علما ولا دينا ولا خلقا ، فهو يغرق فى المجون والاثم الى اذنيه حين تمكنه الفرصة ، فان لم تواته دعاها واتخذ اليها الوسائل والاسباب . وهو فى الوقت نفسه يخطب فتاة كريمة من أسرة كريمة ويظهر لهذه الفتاة البريئة وأسرتها انه اطهر الناس سيرة واعفهم لسانا وقلبا ويدا . وهو فى الوقت نفسه يتكلف الوقار والاحتشام ويظهر الايمان والنسك ، ولا يكاد المؤذن يتم أذانه حتى يكون فى المسجد قد سبق الى الصف الاول ، ولاتراه فى مجلس من المجالس العامة ولا فى ناد من الاندية الاوفى يده سبحة يعبث بها ، او كتاب من كتب العلم او الدين ينظر فيه او ينصرف من النظر فيه وكأنه قد اكره على هذا الانصراف اكراها . انا ياسيدى خير من هذا الشيخ فى نفسى ، وخير منه فى نفسك ، وخير منه عند الله

قلت ضاحكا : اما انك خير من هذا الشيخ فى نفسك وفى نفسى فهذا شىء ليس فيه شك . واما انك خير منه عند الله فالله وحده يعلم هذا . وما ارى الان كليكما شر من صاحبه . وما أرى ان الوقاحة فى الاثم خير من النفاق ، ولا ان انفاق فى الاثم خير من الوقاحة ، انما امركما كحمارى العبادى قيل له ايهما شر ؟ فقال : هذا ثم هذا .

قال وقد ارسل من فمه ضحكة ملات القهوة ، وما اشك فى انها لفتت الينا من كان فيها من الناس : ليس هذان الحماران سواء ياسيدى ، بل ان بينهما شيئا من الاختلاف . فاما أحدهما فقد ينفق النهار لايذوق طعاما وقد يأرق الليل لايذوق نوما ، حتى اذا استقبل الصبح وادركه الضعف واضناه الارق والتفكير استعان على الضعف والضنى بأكواب من الشاى يحسوها هادئا رفيقا ، ثم يخوض معك فى احاديث العلم والدين ، ويجادلك فى الاخلاق وفلسفة الاخلاق ، فهو حمار مثقف متحضر ، ان جاز للحمير ان تأخذ بحظ من ثقافة او حضارة . واما الآخر فهو الحمار الذى ذكره القرآن ، يحمل الاسفار

ويشقى بثقلها ولا يعى ولا يفقه مما فيها شيئا . ولو قد رأيته منذ حين فى هذا المكان الذى ثم يبرحه بعد لوليت منه فرارا ولملئت منه رعبا ، اذا لرأيت حيوانا قد اقبل على طعامه من الفول والبصل كما يقبل الحمار على طعامه من اليابس والاخضر ، وهو يلتهم الفول التهاما ، ويقضم البصل قضما ، وبين يديه هذا الغلام الذى لايزال معه انى الآن يأكل متحفظا مستخذيا من نفسه ومن مكانه بين يدى هذا الشيخ امام الناس . ثم يفرغان من الالتهام والقضم ، ومن الازدراء والخضم ، ويحمل اليهما الشاى ، فاذا الغلام يتناوله فى اناة ومهل ، واذا شيخك الحمار او حمارك الشيخ لايكاد يملا القدح حتى يلقيه فى جوفه القاء كما يصب الماء من النوافذ على الارض صبا . واقسم لقد رأيته منذ حين يقبل على هذه القهوة ضعيفا مكدودا ويسعى الى مجلسه منها بطيئا متهالكا ، ثم يلقى نفسه على كرسيه القاء ، كأنه عجز عن أن يمسك جسمه على ماينبغى له من اعتدال القامة ، فخر على كرسيه كما ينقض البناء . أقسم لقد رأيته يقبل ثم يسعى ثم ينهار على هذه الحال ، فما شككت فى أنه أنفق ليله أو اكثر ليله فى غير النوم وفى غير ما يارق له النساك والصالحون ، وفى غير مايسهر له العلماء والمفكرون ، وفى غير ما أنفقت فيه ليلى من ألم وندم ومن هيام واضطراب فى الارض . ثم لم يكد يستقر ويستقر غلامه هذا بين يديه ، حتى أقبل الخادم فسمع منهما كلاما ثم انصرف ، وأقبل صاحب الفول يحمل آنيته وطعامه وحزما من البصل . وانكب الشيخ على ماقدم اليه لا يعقل ولا يعى ولا يستأنى ولا يكاد يمضغ أو يذوق ، انما هى يد تنقل الطعام من مكانه على المائدة لتلقيه فى مكانه الاخر من جوفه . حتى اذا امتلأ واكتظ وحاول ان يطفىء نار الهضم بهذه الاقداح من الشاى الى ألقاها فى حلقه القاء ، تهالك على كرسيه كما أراه الان لا نائما ولا يقظان ، وانما هو شىء بين ذلك . وغلامه جالس بين يديه يرمقه فى خزى وازدراء ثم ينظر فى صحيفته

ويشغل نفسه عنه بالقراءة . والله يعلم الى أين يذهبان اذا قاما . والله يعلم فيم ينفق شيخك الحمار أو حمارك الشيخ نهاره . وأكبر الظن انه سيكذب ويمكر ويكيد ، ويسعى بين الناس بالشر ، ويظهر الطاعة والعبادة بين ذلك ، فيؤدى الصلوات فى أوقاتها ، ويضع جبهته حيث يريد الله لها أن توضع فى هذا المسجد أو ذاك من المساجد التى تلقاه فى بعض الطريق . كلا ! ليس الحماران سواء ياسيدى . أحدهما حمار متحضر مثقف ، والاخر حمار وحشى غليظ .

قلت وقد أغرقت فى الضحك: هما حماران على كل حال ، ولكن صورة الحمار الوحشى تعجبنى من الناحية الفنيه

قال : كل يصف حماره الوحشى كما يستطيع ، فما أظنك تريدنى على أن أصفه كما كان الشعراء الاقدمون يصفون حمرهم الوحشية . وانك لتعلم أن أولئك الشعراء كانوا يرون حمرا تمشى على أربع ، أما نحن فنرى حمرا تمشى على رجلين . ثم صب لنفسه قدحا من الشاى وأخذ يدير الملعقة فيه مستأنيا بطيئا كأنما يأتى عملا آليا على حين قد شردت نفسه وفارقته الى مكان بعيد . وسكت عنه حينا فلم يتحدث ، ومضيت فى الصمت فمضى فيه ومضت يده تدير الملعقة فى القدح . حتى اذا أنكرت منه ذلك قلت له : ويحك ! ماذا تصنع وفيم تفكر ؟ قال: ياسيدى ان الحمر لا تفكر ، ثم ألقى الملعقة من يده وأخذ يحسو الشاى مصمما على الصمت وماضيا فيه . قلت : فانى أغضبتك حين شبهتك مع صاحبك بحمارى العبادى . فلا بأس عليك ، فواحدة بواحدة . لقد أغضبتنى أول من أمس ثم اعتذرت الى ، وقد أغضبتك الان وأنا أعتذر اليك ، فعد الى مثل ما كنا فيه من الحديث .

قال : ما أغضبتنى وما أكره أن أكون حمارا مادمت أعرف أنى حمار مثقف متحضر . فارتفاع الملعقة فى السماء وانحناء الجسم الى الارض والمشى على رجلين أو على أربع كل ذلك لا يعنينى مادمت أجد اللذة والالم فى الحس والشعور والتفكير . أتدرى ماذا كنت أصنع

حين أقبلت على آنفا ؟ . قلت لا . قال : فانى كنت أتحدث الى امرأتى فأطلت الحديث ، ثم أحسست انها لن تفهم من حديثى شيئا ، فطويت كتابى وتحدثت الى أبى فى الاسطر القصيرة التى أقرؤها عليك . ثم أخذ يقرأ :

« والدى العزيز .

اذا انتهى اليك كتابى هذا ، فستجد معه صك الطلاق ، فانى قد طلقت حميدة أمس على كره منى : لانى لا أدرى كم يطول مقامى فى أوربا ، وما أحب أن أفرض عليها حياة معلقة مع أنها لم تجن ذنبا ولم تقترف اثما . وما لها تتعذب لانى أريد أن أتعلم ، وتشقى لانى أكلف بالاغتراب ! . وانى لمحزون لهذا الطلاق الذى أقدمت عليه ، ولكن لابد مما ليس منه بد . فاقرأ عليها تحيتى وعذرى واستوص بها وبأهلها خيرا . والسلام عليك ورحمة الله . »

ثم قال : وكذلك ياسيدى أديت فى هذا اللفظ القصير السخيف معان لاتتسع لها الكتب الطوال ، لان الله قد أراد ألا يفهم الناس عن الناس ، وأن تظل بينهم الحجب الصفاق ، فهم يعيشون ويتعاملون ويعتقدون أنهم يعيشون معا وأنهم يتعاونون على الحياة وان لكل واحد منهم لبرجا من العاج يعيش فيه لايظهر عليه أحد ولا يظهر هو منه على انسان .

قلت : وكتابك الى امرأتك ماذا صنعت به ؟ قال : طويته وماذا تريد ان اصنع به الا أن امزقه وارميه فى النار . قلت : فالقه الى ان لم تجد بذلك بأسا . قال : وأى بأس ان تلتهمه أنت أو ان تلتهمه النار ! سواء على ، ولكن لا تطلب الى أن أقرأ عليك هذا الكتاب ، فخذه وليقرأه عليك غلامك الاسود متى شئت . أما أنا فانى متعب مكدود ، وأظن أن قد آن لى ان انصرف عنك ، فليس بد أن يخلو هذا البيت مما فيه من الاثاث . قلت : ستنصرف عنى ، وستخلى بيتك من اثاثه ولكن بعد ان تستريح فانفق معى بقية اليوم وافرغ لامرك اذا كان الغد وقم فلننصرف الى بيتى ، فلعلك تظفر فيه ببعض الراحة .

ثم نهضنا متثاقلين ، وخرجنا متباطئين . فلما جاوزنا الباب قال فى ضحك خفيف : مازال حمارك الشيخ أو شيخك الحمار لى ركنه يقظان كالنائم ، ونائما كاليقظان .

١١

يونيو فى ...

لم يؤونى البيت منذ فارقتك ظهر امس ياحميدتى العزيزة . ومع ذلك فقد قضيت فيه وقتى كله منذ انصرف بك القطار عن القاهرة الى هذا الوقت الذى اكتب اليك فيه وقد كاد يرتفع الضحى . ذلك ان فى نفسى صورة لاتريد ولا اريد أنا أن تفارقنى ، وهى صورتك قبل الرحيل وقد انتحيت ناحية من غرفتنا ووقفت واجمة لاتنطقين . ثم لم أكد أقبل عليك وادعو باسمك حتى رفعت الى عينا مثقلة لاتريد ان ترتفع ، ثم انهمرت دموعك انهمارا صامتا لا يتبعه ما يتبع دموع النساء عادة من زفير وشهيق . وقد نظرت اليك وانت فى هذه الحال ساعة لم أقل لك شيئا ولم أقل لنفسى شيئا ، وانما وجمت كما كنت واجمة ، ثم انهمرت دموعى كما انهمرت دموعك ، ثم قام كل منا فى مكانه لحظات لاادرى اكانت طوالا أم قصارا ، ولكنها كانت لحظات صمت عميق يغمره دمع غزير . ثم سعيت اليك فى رفق فضممتك الى وطوقتك بذراعى ، فلم تقولى شيئا وانما اسندت رأسك الى كتفى وظل دمعك ينهمر سخينا غزيرا ثم اخذت رأسك بين يدى ، ولثمت عينيك كأنما اريد ان اشرب دمعك شربا ، ثم قبلت جبهتك ، وخديك ، ثم ضممتك الى مرة اخرى فقبلتنى ثم افترقنا ومضى كل منا فى الاستعداد للرحيل .

لم تفارقنى هذه الصورة أو هذه الصور ولا اريد ان تفارقنى ، فمازلت منذ أمس انظر اليك واجمة وارى دموعك تنهمر ثم اراك بين ذراعى تذرفين دموعك على كتفى ، ثم ارانى اقبلك واراك تقبلينى ، ثم اراك تسعين فى الغرفة ذاهبة جائية تهيئين متاعك

في صمت متصل لايقطعه شيء حتى ولا زفرة من الزفرات .
ولقد اضطربت المدينة في بقية النهار وشطرا من الليل ولقيت كثيرا من الناس فتحدثت اليهم وسمعت منهم ، وخيل الى انهم يفهمونني وخيل الي انى افهمهم ، وخيل اليهم في اكبر الظن اني كنت كما تعودوا أن يروني دائما ثرثارا ساخرا متصل العبث والمزاج ولكن الله يشهد ماخلصت لواحد منهم ولا خلص لي واحد منهم ، وانما كنت امنحهم بعض نفسي او كنت أمنحهم أيسر مايستطيع الرجل أن يمنح من نفسه . وكنت ارى ان هذا يكفي لافهم عنهم وليفهموا عني ، وكانت خلاصة نفسي مماوءة بك منصرفة الى تملؤها هذه الصورة وتمتزج بها امتزاجا حتى لكأنها هي . ولست ادري : اتعرفين اني كثير التفكير والتحليل ، واني لاحس شيئا ولا اجده الا فكرت فيه وحاولت تحليله وتعليله ! ولكن كيف تعرفين ذلك أو تقدرينه ولم يكن بينك وبيني الا ايسر مايكون من الصلات بين الازواج . فانت لاتعرفين من امري الا أقله وايسره ، وانا لايفوتني من امرك الا أقله وأيسره . لست ادري أتعرفين اني كثير التفكير والتحليل ، ولكن حين رأيت الحاح هذه الصور على ولزومها لنفسي وامتلاكها اقلبي وامتلاء خواطري بها واحسست ماكان بينها وبين نفسي من الامتزاج ، اخذت افكر فيما يقوله بعض الناس من اصحاب التصوف حين يتحدثون عن امتزاج الظرف بالمظروف والعقل بالمعقول والفكر بموضوع التفكير . ولكن فيما اتحدث اليك ياحميدة البائسة ، اني لاقص عليك سخفا لايغني ولايستطيع ان يبلغ سمعك ولا ان يستقر فيه ولاان يتجاوزه الى قلبك الحزين . وما أنت وماهذا الكلام ! وما انا والتحدث به اليك ! وانما اريد ان ارسل اليك كتابا كله حب وكله بر وكله حنان . فأين هذا مما اخذت أهذي به وأخوض فيه !. أفكتب علينا ألا تلتقي نفسانا فيطول بينهما اللقاء ؟ أفكتب علينا ألا يكون بيننا هذا الامتزاج الحلو الذي لايخفى معه من احدنا شيء

على صاحبه لامن حسه حين يحس ، ولا من شعوره حين يشعر . ولا من تفكيره حين يفكر ؟! أفكتب علينا ان نلتقى اجسامنا وألا تلتقى نفوسنا الا لحظات قصارا فى نظرات قصار سراع كأنما نختلسها اختلاسا ؟! ولكن اتفهمين عنى ما اقول ؟ اتحسين ما أحس ؟ اتجدين ما اجد ؟ انى لم أتعود ان اتحدث اليك مثل هذا الحديث وانما تعودت ألا اتحدث اليك الا قليلا ، والا اتحدث اليك الا فى ايسر الاشياء وادناها الى السخف واشدها اتصالا بشئون حياتنا المادية مما يمس شئون البيت . ما اذكر انى تحدثت اليك فى الحب ، وما اعلم انك تحدثت الى فيه . كنت ارى انك لن تفهمى عنى اذا تحدثت اليك بما اجد . وكأن الحياء يمنعك من ان تتحدثى الى بعض ما تجدين . وكنا نكتفى بالنظرات الحاوة القصيرة يملؤها الحنان . وكنا نكتفى بحلاوة الصوت ولين الالفاظ وعذوبة النبرات حين نتحدث فى أى شأن من الشئون ليشعر كل منا بما يجد من الحب والعطف ومن الحنو والاخلاص وكانت حياتنا على هذا النحو صريحة واضحة فى شئونها المادية ، وكانت رمزا او شيئا اشد غموضا من الرمز فيما يمس شئون القلب والنفس والضمير . ولعلنا لم نشعر قط بأن لنا شيئا من حياة القلب والنفس والضمير ، فلم نفكر قط فى تحليل مابيننا من صلة او فى تأويله وتعليله . ومتى كنا نستطيع ان نفكر فى ذلك وقد كنت مشغولا عنك بالعمل والكتاب ، وكنت مشغولة عنى بالبيت . وكنا لا نلتقى الا لنتحدث فيما يتحدث فيه الازواج من الامور غير ذات الخطر التى لا تمس قلبا ولا نفسا ولا ضميرا . ماذا اقول ! والى من أكتب ؟ والى من اسوق هذا الحديث ؟ أترين انك تفهمين هذا الكلام ؟ ما أظن ! فكيف تفهمينه وانت تسمعينه لأول مرة ! ومع ذلك فانى شديد الحاجة الى أن أتحدث اليك كما تعودت ان أتحدث الى نفسى بهذا الاسلوب العسير الدقيق ، وعلى هذا النحو الذى لا ينقصه العوج ولا الالتواء .

ومع ذلك فقد كان يسيرا كل اليسر هذا المعنى الذى اردت ان

اتحدث به اليك حين بدات هذا الكتاب ، فقد كنت أريد أن أنبئك بأنى لم أستطع ان أستقر فى بيتنا بعد فراقك ، لانى وجدت فيه وحشة نفتنى عنه وجعلت مقامى فيه مستحيلا ، فهمت فى المدينة وتلمست السلوة عند الاصدقاء بقية النهار وطول الليل . ولم أستطع مع هذا ان أنسى البيت او أنسى غرفتنا فيه أو أنسى صورتك فى هذه الغرفة طول هذا الوقت رغم الاضطراب فى الارض والاختلاف الى الاندية والاتصال بالاصدقاء .

هذا ماكنت اريد ان اتحدث به اليك حين اخذت أسطر هذا الكتاب ، فهو يسير سهل كما ترين ، ولكنى مع ذلك لم اكد آخذ فيه حتى تعقد والتوى بى أو التوى على ، ودفعنى الى انحاء من التفكير ومذاهب من القول بعدت بى عن الغاية ولم أخلص منها ، ولم أعد الى ماكنت أريد الا بعد مشقة وعناء . وكذلك أنا فى حياتى الشاعرة مضطرب ملتو كثير الاستطراد ، لا أفكر فى شىء الا أثار لى أشياء ، ولا آخذ فى مذهب الا التوى بى الى مذاهب تشق شقا من نواحيه ، فأنا أيام مرة وأياسر أخرى ، وربما نسيت الطريق التى أخذت فيها أول الامر ، ومضيت فى الاستطراد الى غير أمد .

وكذلك أنا فى حياتى العملية لا آتى أمرا الا أثار لى أمورا وفتح لى أبوابا من النشاط مختلفة الجهات بابا بابا . ولعلى ألج واحدا منها فلا أخرج منه ، وانما تفتح لى أبواب أخرى . فأنا مضطرب حين افكر ، وانا مضطرب حين أعمل ، وأنا مضطرب حين أقول . والغريب أنى استطيع مع هذا الاضطراب كله ان أعرف لحياتى وحدة وان أتبين لها طريقا متشابهة تنتهى أو تريد أن تنتهى الى غاية مقاربة . ماذا أقول ! هأنذا قد بعدت عنك وعما أكتب اليك من اجله ، وفرغت لنفسى او شغلت بها ، فأنا أدرسها وأسرف فى درسها وتحليلها ، وان كنت أعلم ان لدى من الوقت مايكفى للنظر فى المرآة ولارى هذه النفس التى احب وأكره ان اراها . وليس لدى من الوقت مايسمح لى بالتحدث اليك فيما اريد الا القليل . ومن يدرى ! لعل

نفسي غير الشاعرة التي تجور بي عن القصد وتنحرف بي عن الطريق المستقيمة لانها تشفق من المضي الى الغاية التي من اجلها اكتب تشفق عليك وتشفق علي أيضا ، فان الامر الذي أريد أن أتحدث اليك فيه ثقيل خطير ، ما أحسب انك تقوين على استماع حديثي فيه ، وما أشك في انى محتاج الى شيء كثير جدا من الشجاعة والجلد لامضي في هذا الحديث . وكذلك ترفق نفسي غير الشاعرة بنفسي الشاعرة ، وتحميها من بعض ما تكره وتريد أن تؤخر عنها العذاب ، فما أشد سلطان الاثرة علينا ! وما أشد استئثار الضعف بنفوسنا وما أشد امتلاك الخوف لقلوبنا ولا سيما حين نزعم اننا أقوياء وحين نريد أن نظهر الناس على أننا أقوياء ! ولولا ذلك لما تكلفت هذا الكلام الطويل ، ولما دفعت الى هذا القول الملتوى حين احاول ان أنبئك بنبأ مهما يكن ثقيلا خطيرا فهو واضح لاغموض فيه ، ولكن استحي منك واستحي من نفسي واشفق من الصراحة فأتقيها بالفلسفة والتواء الكلام . فلا تشجع اذا ولتتشجعي أنت أيضا ، ولاقل اذا ولتسمعي أنت ما أريد أن أقول ! ان القلم ليضطرب في يدي ، وان يدي لتجمد فلا تكاد تتحرك ، واني لمحتاج الى أن أكفه عن الكتابة حينا لاسترد القوة والجراة والنشاط . وهأنذا استأنف الكتابة وأدافع عن نفسي دفاعا شديدا لاحول بينها وبين الاستطراد ، ولاكرهها على المضي فيما تلتمس الفراغ منه ، ولاحملها على أن تقسو عليك وعلي فتلقي اليك بهذا النبأ وهو اننا لن نلتقي بعد اليوم .

أف ! لقد القيت العبء وتخففت من الثقل ، واستطعت أن أتنفس في غير حرج ولا ضيق ، وأحسست كأني أصبحت طليقا حرا وقد كنت مقيدا مغلولا ، لا لشيء الا لاني القيت اليك هذا النبأ بعد ان كنت أتحرج من القائه ، وأصبحت ملزما أن أعلله لك وأن افسره وان ارد عن نفسي ما سيثور في قلبك من الشبهات . وانا اعلم انك لن تصدقيني ولن تؤمني لي وان تقبلي شيئا مما أقول . ولكني أقسم مع ذلك ما طلقتك عن قلى ولا فارقتك عن زهد فيك أو رغبة عنك او نفور

منك . وانى أقسم ماأحببتك قط كما أحبك الآن ، وما آثرتك قط كما أوثرك الآن ، وما عرفت سلطانك على ويدك عندى كما عرفتهما الآن . بل اقسم انى لاحس كأنما اشطر قلبى شطرين ، فأحفظ شطره فى صدرى وارسل بشطره الآخر الى مكان بعيد فى اعماق الريف حيث لايتاح لى أن القاه . بل اقسم ماطلقتك الا حبا فيك وايثارا لك وضنا بك على ما اكره . ولاكن صادقا كل الصدق . فان الضعف والعجز والخور ، كل هذه العيوب هى التى تدفعنى الى ان افارقك اشد ما اكون لك حبا واعظم ما اكون لك حبا واعظم ما أكون عليك حرصا . لم استطع ان اوثرك على اوربا فأبقى معك ، ولا استطيع ان اطمئن الى انى سأكون وفيا اذا عبرت البحر فأحتفظ بما بيننا من صلة الزواج . ولست أريد هذا الوفاء الخلقى الذى يتصل بالنفس ، فأنا واثق بأنى قادر عليه ، بل انا واثق بانه سيعذبنى وسيكلفنى آلاما واسقاما . انما أريد الوفاء الكامل الشامل الذى يملك النفس كلها والقلب كله والضمير كله والجسم ايضا . اريد هذا الوفاء الذى لايبيح شركة ولا توهما للشركة ولاتفكيرا فيها . وانا آسف اشد الاسف محزون اشد الحزن ، لانى اعلم انى سأتعرض للفتنة اذا عبرت البحر . وان بعض اللحظ سيمس قلبى ، وان بعض الجمال سيستهوينى ، وان بعض الشر سيدفعنى الى شىء من الغى . وما أحب ان اعرض حبك ، استغفر الله ، بل ماأحب أن اعرض زواجنا للاثم والفساد . لااستطيع ان اخفى عليك ماقد اقترف من اثم . لانى لم اعودك ولم اعود نفسى الكذب . ولا استطيع ان اعترف لك بما قد اقترف من اثم ، لانى ان فعلت آذيتك فى غير حق وفى غير جدوى ، وعرضت مابيننا للفساد . وانا ان كذبت عليك أهنت نفسى بالكذب ، وان اعترفت لك أهنت نفسى بالاعتراف . واذا فمالى لااستقبل الحياة شجاعا جريئا مستمتعا بلذاتها محتملا لتبعاتها ! ! كم كنت اريد ان أكون قويا قادرا على ان اقاوم الشر واعاف الاثم . واحتفظ بقلبى طاهرا نقيا ، وبجسمى عفيفا نظيفا ، وارد هما اليك بعد

العودة كما ارتحلت بهما عنك اول الرحيل . ولكنى عاجز عن ذلك ، او عاجز عن الاطمئنان الى ذلك . والغريب ان من الممكن ان أعبر بحر الغواية ولا اغوى ، وان اقضى اعوام الغواية نقيا طاهر القلب ، وان اكون قد شققت على نفسى بهذا الحرج وحملتها ماكنت استطيع الا احمالها . هذا ممكن ولعله ان يكون . ولكنى لا اكتفى بالممكن ولا اطمئن الى الظن . انما اريد الثقة ولا سبيل اليها ، واطمع فى اليقين ولا امل فيه . ولهذا تكلف ما اتكلف واقدم على هذا الامر العظيم .

أترين انك فهمت عنى ؟ ما اظن ! ومتى فهم العقلاء عن المجانين ؟ اترين انك صدقتنى ؟ ما اظن ! ومتى صدق الناس مثل هذا الهذيان ؟ يا للحزن ويا للاسى ! لمن اكتب هذا الكتاب والى من اسوق هذا الحديث ! انك ان قرأته فلن تفهميه ، وان فهمته فلن تقبليه . فكيف وانت لن تقرئيه ، انى لغافل ذاهل ، انى لمدله مجنون . لقد أنسيت انك لا تقرئين ولا تكتبين فمن الذى سيقرأ عليك هذا الكتاب ويفسره لك من اهل الريف ؟ . كلا لن أتمه ولن أرسله اليك ولن تعلمى من امرى الا انى رجل قاس غليظ مسرف فى كفر النعمة وجحود الجميل ! متتبع للاهواء والشهوات لا اتحرج من شىء ولا اعرف لجموح نفسى غاية تنتهى اليها او حدا تقف عنده . سيسقط النبأ فى اسرتنا كما تسقط الصاعقة ، وسيلقونه اليك فى عنف او فى لين ، وستجزعين وتظهرين التجلد ، وسيبكى قلبك وتتكلف عيناك الجمود . ثم ستمر الايام ، وستحرصين على ان يصل اليك بعض انبائى دون ان يعرف منك هذا الحرص . ثم سيأتى الخاطبون . كلا ! لا اريد ان امضى الى ابعد من هذا الحد فى التفكير ، فما ارى انى اقوى على هذا المضى . لقد ابطأ على صاحبى وكلفنى انتظارا طويلا . ليته يقبل فيخرجنى من هذا العناء .

قرأ غلامى الاسود الصغير هذا الكتاب بعد ان انصرف عنى صاحبى فلم اكد افرغ من قراءته حتى رثيت له ، وسألت نفسى

كيف يكون موقع هذا الكتاب من حميدة البائسة لو أنها استطاعت ان تقرأه وتظهر على مافيه !

١٢

يوليو فى ...

لم تفارقنى صورتها بعد ايها الصديق العزيز ، ومع ذلك فقد مضت ايام وايام منذ انصرف بها القطار الى قريتها فى الريف ، وحدثت بعد ذلك احداث واختلفت شئون ، فلقيت من لقيت وتحدثت الى من تحدثت اليه ، واقدمت من الامر على اليسير والخطير ، ثم كانت الرحلة وهبط بى القطار الى البحر ومضت بى السفينة الى ماوراء البحر ، وهأنذا اكتب اليك فى غرفة من غرفاتها . وشهد الله ما فارقتنى صورتها اثناء هذا كله فى يقظة ولا فى نوم

ولقد سألت نفسى منذ عهد بعيد عن خير مايستطيع الصديق أن يتمناه للصديق . وسألت نفسى حين عرفتك فأحببتك ، وحين فارقتك فجزعت لفراقك ، عن خير ما استطيع ان اتمناه لك ، وعرضت على نفسى اجوبة مختلفة لهذا السؤال كنت اطمئن الى بعضها حينا ثم ادعه ، وكنت انصرف عن بعضها الآخر حينا ثم اعود اليه . ولكن الحياة نفسها قد اجابت على هذا السؤال جوابا ما احسب انى سأتحول عنه . فخير ما اتمناه لك وخير ما اتمناه للصديق وخير ما اتمناه للعدو ان طابت نفسى واحببت للعدو خيرا ، هو ان يجنبك الله اسباب الندم ، ويعصمك من الاضطرار اليه والايغال فيه . فلست اعرف ألما اشد ولا حزنا الذع ولا عذابا امض ولا شقاء مفسدا للحياة كهذا الذى يثيره الندم فى نفس الرجل الذى يقدر من الامر ما يأتى وما يدع

وانى لاقول لك هذا عن علم ، واتحدث به اليك عن تجربة . واى تجربة ! تجربة وددت لو انى تحملت كل ماذقت من الالم منذ عرفت الالم مرة واحدة ولم ادفع اليها . فيالها من منغص ماكر قادر يعرف كيف يلقاك جهرة فيقطع عليك كل امل ، ويأخذ

عليك كل طريق ، ويردك الى حزن مظلم متكاثف الظلمة لا منفذ للنور منه ، فاذا ألح عليك بالهم والحزن وبالتنغيص المتصل والكدر المتقطع حتى انتهى بك أو كاد ينتهى بك الى اليأس المهلك ، جلا عنك غمراته ، ونفس عن قلبك وعقلك بعض الشيء ، وخيل اليك انك قد رددت الى الفضاء الواسع والهواء الطلق والضوء المشرق . ولكنك لا تكاد تذوق الراحة وتطمئن الى بعض الامن ، حتى يمسك هذا الشيطان الخفى مسا رفيقا ولكنه عنيف ، ليناً ولكنه يبلغ غاية القسوة . يخز نفسك بين حين وحين وخزا يسيرا ضئيلا خفيفا لا يكاد يحس ، ولكنه يذكرك بمكانه وينبهك الى ان فى هذا الهواء الطلق راحة لجسمك ان تنسمته مطمئنا فارغ البال . ولكن يجب عليك ألا تطمئن وألا يفرغ بالك ، فهو هنا قريب وان ظننته بعيدا ، وانه دان منك كل الدنو وان حسبته نائيا عنك كل النأى . فان كنت فى شك من ذلك فانظر واشعر وسل نفسك عن هذا الوخز الخفيف الذى تجده ، ماهو او من اين يأتيك ؟ فستعلم انه مس هذا الشيطان والم هذا الندم الذى أن رفه عليك فانه لم ينسك ، ولا ينبغى له ولا ينبغى لك ان تظن انه سينساك .

نعم ! وينبهك الى انك قد تجد اللذة فى الحديث مع من يحسن معه الحديث ، وفى التفكير فيما يحسن فيه التفكير ، ولكنه كفيل أن ينغص عليك لذة الحديث والتفكير بوخزة من هذه الوخزات الرفيقة الضئيلة التى يمسك بها ناحية من نفسك ، فاذا انت تقطع الحديث فجأة ، وتنصرف عن التفكير فجأة كأنما ذكرت شيئا كنت تنساه .

نعم ! وينبهك الى انك قد تجد اللذة والمتاع فى قراءة الكتاب القيم الذى يغذى عقلك وحسك وشعورك بما شئت من علم وادب وفن ، والذى تود لو تفنى فيه فناء وتمتزج به امتزاجا وتنسى لقراءته الزمان والمكان وما يشتمل عليه الزمان والمكان ، ولكنه خليق

ان يحول بينك وبين ماتريد من هذا ، وان يفسد ماتجد من لذة ومتاع بوخزة من هذه الوخزات التى يمس بها نفسك فى ناحية من نواحيها ، فاذا يدك تتحرك حركة آلية فتضع الكتاب ، واذا رأسك يتحرك حركة آلية فيرتفع الى السماء ، واذا انت واجم قد انسيت ماكنت فيه ، واشتمل عليك ذهول غامض واضح مما فيه انصراف عن كل شىء ، وفيه شعور بهذا الشيطان الذى يفسد عليك كل شىء . وقد يكون هذا الشيطان أخفى من ذلك مكرا وادق حيلة ، فهو لايصرفك عن الكتاب ولايلقيه من يدك ولايحول عنه عينيك . ولكنه يسايرك فى القراءة كأنه الرفيق ، ويلقى أثناء ذلك كلمات وخواطر لاصلة بينها وبين ماتقرأ ، فاذا هى تختلط بماتقرأ ، واذا هى تحول نفسك عما فى الكتاب ، واذا انت تقرأ بعينيك دون ان يصل شىء مما تقرؤه الى نفسك .

وقد يغلو هذا الشيطان فى المكر بك والكيد لك ، فلا يسايرك فى القراءة ، ولايلقى فى نفسك كلمات ولا خواطر ، ولايصرفك عن الكتاب وانما يصرف الكتاب عنك صرفا ، يثير بين الحروف والكلمات والسطور صورا ومظاهر وألوانا من الخيال ، تراها وانت كاره لرؤيتها ، وتحاول ان تخلص منها الى هذه الحروف والكلمات والسطور فلاتجد الى ذلك سبيلا . فالكتاب بين يديك ولكنه بعيد عنك . والكلمات امام عينيك ولكنها تفر منك . هى تفر وانت تطلبها ، وهذا الشيطان يلقى بينها وبينك غبارا من هذه الصور والمظاهر والخيالات . وقد يزدريك هذا الشيطان فلايتكلف فى تعذيبك جهدا ولاعناء ، وانما يداعبك فى رفق ويلاعبك فى استهزاء . فأنت فى حديثك او فى تفكيرك او فى قراءتك ، واذا صورة ضئيلة يسيرة رقيقة تتراءى لك فتمر بين نفسك وبين ماتريد ان تقول او تفكر او تقرأ ، ثم لاتلبث ان تنجلى عنك فى سرعة البرق الخاطف ، فاذا انت تعود الى ما كنت تقول وما كنت تفكر وما كنت تقرأ ، ثم ماتزال بك مقبلة مدبرة ، وسانحة بارحة ، وملمة منصرفة ، حتى يجهدك الشيطان ولم يصبه الجهد ،

ويشق عليك ولم تدركه المشقة ، ويوئسك من الحديث والتفكير والقراءة وهو جالس غير بعيد ، ينظر اليك فى احتقار وازدراء ، وفى سخرية واستهزاء .

كل هذا وجدته أيها الصديق العزيز منذ مضى بها القطار الى قريتها فى الريف . ومازلت اجده الآن والسفينة تمضى بى الى فرنسا متكلفة مع البحر فنونا من السير ، تجاهده جهادا عنيفا حين يهيج وتضطرب به امواجه وتعصف به الريح ، وتداعبه دعابة حلوة حين يهدأ ويستقر ويعبث على سطحه النسيم . وكم منيت نفسى منذ اخذت اتهيأ لهذه الرحلة ان أجد هذه اللذات المتباينة التى يجدها المسافرون فيما يكون بين سفينة والبحر من جد وهزل ، ومن خصام ووئام . ولكن هذا الشيطان قد حال بينى وبين ماكنت اتمنى من ذلك ، فأفسده على افسادا ونغصه على تنغيصا . ولو انه القى بينى وبين ما اريد من ذلك حجبا صفاقا واستارا كثافا لهان الامر ولكان اليأس منه ريحا ، ولكنه يشرف بى على اللذة اشرافا ويمكن بى فيها امعانا ، ثم يقطع اسبابها قطعا ، ويصدنى عنها أو يصدها عنى اشد ما أكون كلفا بها واندفاعا اليها واستعدادا لاجتناء ماهيأت لى من ثمرات .

جنبك الله الندم ايها الصديق ، وعصمك من اثقاله فانها لاتحتمل ، ومن آلامه فانها لاتطاق .

ولست مع هذا كله مبغضا الشيطان الندم ، هذا الذى يعذبنى ، ولامنكرا عليه ، فأنا اعطى الحق من نفسى واقبل راضيا او كارها ماليس من قبوله بد . فأنا قد اقترفت الاثم ، ولابد من ان احتمل اثقاله واتجرع آلامه . فالاثم عندى شجرة لابد من ان تؤتى ثمرها اذا صادفت من الخصب مايمكنها من النمو والاثمار . وانما تصادف الخصب واسباب النمو والاثمار حين تصادف نفسا كريمة حرة دقيقة الحس قوية الشعور . والندم عندى آية من آيات الكرم ، وعلامة من علامات السمو ، ومظهر من مظاهر الارتفاع عن الدنيات ، ودليل من ادلة خصب النفس

وجودة اصلها واستعدادها للخير وحسن البلاء فيه . وانى لابغض النفوس المجدبة التى لاتعرف الماولاندما ، والتى تموت فيها اشجار الآثام والخطايا ، كما يموت النبات فى الصحراء المحرقة المهلكة .

وانى لابغض هذه النفوس ذات الخصب السيىء الردىء التى تغرس فيها اشجار الخطيئة والاثم . فلاتموت ولاتجف اعوادها وانما تثمر خطايا وآثاما .

أترى أيها الصديق انى مغرور مسرف فى الغرور ! اتعزى عن الاثم والندم بتزكية نفسى ، واكادلااكره ما اقترف من الآثام لانه يشعرنى بأنى كريم النفس نبيل الطبع نقى الضمير ! ولكن لاتنكر على هذا الغرور ، ولاتامنى فيما التمس لنفسى البائسة من ضروب التسلية وألوان العزاء . فلولاهذا الغرور لاهلكنى ما أجد من الحزن . ولقضى على ما أحس من الندم ، ولدفعت الى اليأس المهلك دفعا .

والى لاعجب كيف انجلت عنى غمرة الامل وصرفت صرفا عن هذه الخيالات الحلوة التى كنت اخلقها لنفسى خلقا ، وأستعين بها على ماكنت مقدما عليه من الطلاق حين كنت اتصور الحياة الجديدة فى فرنسا . وما تدخرلى من لذات مختلفة لاتفنى . فأنا احاول الآن ان اتصور هذا البلد الذى انا مقبل عليه ، فلا ارى الا هذا البلد الذى انا منصرف عنه

أحاول ان اتمثل السربون فلاارى الا جامعتكم المصرية . واحاول ان اتمثل رفاقى من الفرنسيين فلا ارى غيرك وغير اصحابك الشيوخ . ثم احاول ان أتمثل جمال باريس فلا ارى الا القاهرة واحاول آخر الامر ان اضلل نفسى واعللها وامنيها الامانى الآثمة ، احاول ان اتمثل المرأة الباريسية فلا أرى الا حميدة قائمة امامى كهيئتها يوم كانت تستعد للرحيل فى بكاء متصل وصمت عميق .

مهما أفعل لانظر الى امام فأنامكره على ان انظر الى وراء . فلا تلمنى اذن حين أعجز عن أن اخرج من نفسى . وعن ان التمس

العزاء الا فيها ، فأنا أتلهى بهذا الغرور عن هذه الاهوال المنكرة التى تأخذنى من كل مكان وتسعى الى من كل صوب . ومالى لا آلم ولا اندم ولا أتجشم من ذلك أهوالا وقد اقترفت اثما عظيما حقا ، لقد كنت أخافك أيها الصديق فلم أصور لك من هذا الاثم : اثم الطلاق ، الا أيسره وأهونه ، لم أصور الا مافيه من ظلم البرىء والاعتداء على من لم يستحق الاعتداء ، وقد لقيت منك مع ذلك لوما شديدا وانكارا عنيفا ، ونبوا كاد يفسد مابيننا من الود . فكيف لو صورت لك حقيقة الاثم الذى اقترفته ! وكيف لو كشفت لك عن وجهه الذى أخفيته عليك .

لقد أفلت منك أيها الصديق . ولقد بلغ الكتاب أجله ، وقطعت الاسباب بين حميدة وبينى ، وبعدت بى الدار . فلا أمل الآن فى اصلاح مافسد ، ولا خوف الان من أن تصدنى عن الرحيل ، الآن أستطيع أن أظهرك على نفسى كلها . . والآن أستطيع أن أنبئك باثمى كله ، وأنا أعلم انك ستحتقرنى وستزدرينى . وما يعنينى من ذلك وأنا أحتقر نفسى وأزدريها !! فلن يصرفنى احتقارك اياى وازدراؤك لى ، ولن يصرفنى احتقارى لنفسى وازدرائى اياها عن أن أتمثل هذا الاثم القبيح وأملأ به خلوتى . وأتغنى بآلامه فيما بينى وبين نفسى غناء قبيحا منكرا بشعا أكرهه أشد الكره ولكن أمعن فيه أشد الامعان .

لن يصرفنى ازدراؤك وازدرائى لنفسى عن هذا كله ، وعن أن أسجل نغمات هذا الغناء البشع فى هذا الكتاب الذى أرسله اليك .

لست ظالما فحسب أيها الصديق ، ولكنى كافر بالنعمة منكر للجميل فلم تكن حميدة زوجى فحسب ، ولكنها كانت منعمة على منقذة لى رضيت بى بعد ان نبذنى غيرها ومنحتنى ودها وحبها بعد أن أعلن غيرها أنى لست أهلا لود ولا حب .

ان لهذا قصة لم انسها ولن انساها ، لانها مزقت نفسى تمزيقا ، وعذبت قلبى تعذيبا ، وآذتنى فى أعز شىء على وهو الغرور والاعتداد بالنفس .

لقد كان أبواى كغيرهما من أهل الريف يعدانني لعروس غير حميدة . وكان أهل هذه العروس يعدون ابنتهم لى منذ نشأنا صبيين . وكانت الفتاة ابنة عمى ، ولم تكن جميلة ولا وسيمة ، ولكنها على ذلك كانت محببة الى أثيرة عندى ، لكثرة ما سمعت منذ الطفولة من حديث الزواج .

ولكنك لم تر وجهى ولا شكلى أيها الصديق . وأكبر الظن أنك هرفت من صوتى انى قبيح الشكل دميم انوجه ، بعيد كل البعد عن أن أروق العذارى ، وأرضى أهواء النساء ، ولم أكن أرى ذلك فى نفسى ولا أعترف به عليها . ومتى رأيت رجلا قبيحا دميما يؤمن بأنه قبيح دميم ! ولكن فهيمة كانت ترى ذلك وتتأذى به وتنفر منه اشد النفور وكانت تكره أن يتحدث اليها أهلها وأترابها بأمر الزواج ، ولكنها لم تكن تظهر الكره وتعلن الانكار ، حتى اذا جد الجد وتقدمت بها وبى السن ، وأخذ أهلنا يفكرون ثم يتحدثون فى أمر الخطبة ، جهرت بالرفض جهرا وأعلنت الاباء اعلانا ، وخرجت فى ذلك عما هو مألوف من امثالها من فتيات الاسر فى الريف ، فنبت على أمها نبوا وامتنعت على ابيها امتناعا ، وأعلنت انها تؤثر الموت على ان تكون زوجا لهذا الشاب الدميم .

وتصور أنت موقع هذا الرفض من نفسى واثره من قلبى وفيما كان يملأ نفسى وقلبى من غرور . ثم تصور ان حميدة كانت أبرع من ابنة عمى جمالا وأكثر منها مالا ، وأذكى منها قلبا وأحسن منها مستقبلا ، وانها مع ذلك سمعت رفض فهيمة فأنكرته واظهرت انكارها ، وتعمدت ان يصل حديث هذا الانكار الى اهلى ثم الى ، وكان هذا الانكار وما أظهرت من أمره وسيلة المودة ثم وسيلة الحظية ثم وسيلة الزواج وما زالت فهيمة تنتظر الزوج الى الآن ، ولكن حميدة قد طلقت . فانظر الى الاحسان كيف يكافأ بالاساءة ، والى النعمة كيف تكافأ بالكفر ، والى الجميل كيف يكافأ بالعقوق ! ومع ذلك فانى لا انظر الان فى المرآة أمامى فأستكشف فى وجهى وخلقى من الدمامة والقبح ما ينهض بألف عذر

وعذر لابنة عمى ، وما يثقلنى بألوان الندم حين أفكر فيما جزيت حميدة به من العقوق .

أتعرف انى اسافر على سفينة انجليزية ؟ فقد تهيأت لهذه السفينة وانبأنى المنبئون بان المسافرين على السفن الانجليزية اذا استقبلوا المساء لبسوا له لباسا خاصا لا يقبلون فى غرفة المائدة بدونه ، فاتخذت لنفسى هذا اللباس واتخذته على أحسن مايتخذه المترفون . فلما اقلعت السفينة واقبل المساء عمدت الى هذا اللباس فدخلت فيه ، واتخذت مايتصل به من زينة ، وكانت صورة حميدة لاتفارقنى ، وكانت صورة فهيمة تعرض لى من حين الى حين . فلما تهيأت للخروج من غرفتى سمعت فهيمة تنكر قبحى ودمامتى ، ورأيت حميدة تبسم لى وتشير الى . هنالك نظرت فى المرآة فرأيت ، ثم استحييت ثم بكيت ، ثم نزعت هذا اللباس نزعا ، ولم أخرج الى غرفة المائدة هذا المساء . ثم أصبحت فتكلفت المرض وأخذت نفسى بأن آكل فى غرفتى . وأقسمت لا أغشى غرفة المائدة ولا مجالس السفينة اجتنابا لسخرية النساء ، فما أرى منذ الآن الا انهن جميعا فهيمة .

أترى الى أى حد انتهى الاضطراب بعقل صديقك وبما له من حس وشعور ؟ ولن تعلم حميدة من هذا شيئا ، ولن تعرف حميدة أنى أجد من الندم على فراقها ما يفسد على حياتى افسادا ، ويوشك أن ينتهى بى الى شر ما ينتهى اليه الاحياء .

ليتنى سمعت لك ! وليتنى قنعت بما كنت أنعم به فى مصر ! فما أظن الا انى مقدم على سراب أحسبه ماء ، حتى اذا بلغته لم أجده شيئا .

وأخرى لم تعرفها أيها الصديق ، ولا بد لك من أن تعرفها لتعلم أنا مكرهون على أكثر ماتأتى من الامر ، وان اختيارنا لعب كله وغرور كله . فقد كنت أحسب ان الناس لا يعلمون من أمرى الا ماأريد ان يعلموا فأنبئهم به وأظهرهم عليه . وكنت اظن ان اكثر من عرفتهم فى القاهرة وعرفونى يجهلون أمر زواجى جهلا

تاما . وكنت واثقا بأنى أستطيع أن أكذب على الجامعة ان اردت وان ازعم لهـا أنى أعـزب وأن امسك على زوجى واسافر الى اوربا لا اصطحبها . وكنت مع ذلك حريصا أشد الحرص على ألا أكذب على الجامعة . ولم يكن يدفعنى الى هذا الا حب الصدق وايثار الخلق والضن بكرامة العلم وطلابه على الكذب الظاهر والخفى . وكنت احمد من نفسى هـذا الاقدام على التضحية ، وهـذا النصح للجامعة ، وهذا الالحاح فى أن أكون صادقا معها فى السر والعلانية معا .

وكثيرا ما وجدت فى هـذه التضحية التى كنت أحبها وارضى منها مظهرا من مظاهر الغرور ، ومصدرا من مصادر العجب والتيه والاكبار للنفس . وكنت أقول لنفسى اذا خلوت اليها : ليس كل الناس قادرا على أن يبلغ من حب الصدق وايثاره هذا الحد . فأنا اذا شخص نادر وفرد ممتاز . ومن حق الجامعة ان تفخر منذ الآن بخلقى ، كما انها ستفخر بعد قليل بجدى واجتهادى وكفايتى فى البحث وقدرتى على الدرس والتحصيل .

وكان هذا الخاطر الجميل يملؤنى ثقة بنفسى واكبارا لها ورضا عنها . ولعل ذلك كان يظهر فيما كنت آتى من حركة وما كنت ألقى من جمل . بل لعل هـذا كان يظهر فيما كان وجهى يأخذ أحيانا من التصور والاشكال . ولكن لا تسل عما أدركنى من الدهش ، وما أصابنى من خيبة الامل ، وما ملأ قلبى ذات يوم من الحيرة والاضطراب حين دعانى سكرتير الجامعة لأزوره . فلما لقيته لم يظهر الراحة للقائى ، ولم يتكلف الانس بمقدمى ، كما كان قد تعود من قبل ، وانما لقينى فاتر او حدثنى بصوت متكسر ، ثم لم يلبث أن اظهر من التجهم والتكبر والاستطالة ما انكرت ، ثم لم يلبث أن ألقى على حديثا قصيرا متقطعا سريعا كأنه الصواعق يتلو بعضها بعضا ، وقد اتخذ صورة الاستاذ ولهجته ، وصوت الواعظ القالى فى التأنيب ، فما ينبغى لطالب العلم أن يكذب وهو القدوة ، وما ينبغى له أن يغش

وهو الاسوة وقد كانت الجامعة مخدوعة لى . فالان وقد تبين لها الحق وانكشف لها السر تستطيع الجامعة أن تزهد فى زهدا ، وان تنصرف عنى انصرافا . وبين الذين تقدموا للامتحان ونجحوا فيه من يستطيعون أن يشغلوا مكانى فى البعثة ، وان يطلبوا العلم صادقين غير كاذبين ، ومخلصين غير متورطين فى الغش ولا متكلفين للخداع . والجامعة تؤثر ألف مرة ومرة ان تعدل عن ارسال البعوث ، وان تغلق ابوابها اغلاقا فى سبيل الطلاب الذين يختلفون اليها على أن تهيىء للأمة أساتذة يقيمون حياتهم العلمية على الكذب والغش وعلى الخداع والنفاق .

ولست أخفى عليك أنى ضقت بهذا الواعظ الثرثار ، وتعجلته اتمام الحديث والانتهاء الى مايريد . فلم يتردد فى أن يلقى الى ماعنده القاء فيه كثير من الازدراء ، قال: زعموا أنك متزوج ياسيدى ؟ وقد زعمت لنا أنك حر طليق .

هنا أريد ان استغفرك أيها الصديق ، وما أدرى اتغفر لى ؟ فقد أسأت بك الظن واتهمتك بأنك أقدمت على الوشاية بى مخلصا حسن النية تريد ان تحول بينى وبين الظلم ، كما أقدمت أنا على تطليق حميدة مخلصا حسن النية أريد أن أفرغ للعلم وأن أتجنب الخيانة والاثم .

نعم ! أسأت بك الظن واتهمتك ، ورأيت مابيننا من الصلات وقد تصرم وتقطعت أسبابه ، واحسست شيئا من الحزن لكذب ظنى بك وخيبة أملى فيك ، وكان هذا كله سريعا مسرفا فى الاسراع لم أكد أتنبه اليه . ولم يتنبه سكرتير الجامعة الى أن شيئا غيره وغير حديثه كان يشغلنى . فقد اخذت أسأله من زعم لك هذا السخف ؟ ومن القى اليك هذا الهذيان ؟ وكيف تسمع الجامعة لكل مايلقى من القول اليها ! وكيف تصدق كل مايرفع اليها من الحديث ؟ وما ينبغى لك أن تلومنى هذا اللوم ، وتؤنبنى هذا التأنيب قبل أن تتحقق أنك تتهمنى بما لا أستطيع له دفعا ، وتأخذنى بما لا اجد منه مخرجا .

قال الرجل : مهلا ياسيدى ، فليس يغنى عنك ما أنت فيه منذ الآن من انتحاء الى الجدال وشغف بالمراء ، فقد ألقى الينا انك متزوج ، ثم ألقى الينا اسم الاسرة التى أنت مصهر اليها ، فلم نأخذ بالظنة ولم نطمئن الى الريبة ، وانما بحثنا واستقصينا وسألنا حتى تبين لنا الحق وعرفنا أنك قد خدعتنا وضللتنا تضليلا . وما دعوناك اليوم الا لنقطع مابينك وبيننا من صلة فنرد اليك ماأخذنا منك ، ونسترد ما أخذت منا .

قلت وقد ثاب الى عقلى كله ، وحرصى على البغية : قد كان ذلك ممكنا منذ أيام . اما الآن فلا . ثم قدمت اليه صك الطلاق . فلم يكد ينظر فيه حتى تغيرت حاله معى تغيرا تاما ، واذا هو يصافحنى مكبرا لى معجبا بى . ألم أقدم على عمل خطير ! . ثم تبسط معى فى الحديث وقد ضم الصك الذى دفعته اليه الى ماينبغى أن يحفظ من أوراقى عنده . وما زلت أتلطف له وأمكر به ، حتى أطلعنى على ذلك الكتاب الذى ارتفع اليه بالنميمة وانبأه بزواجى . فقرأت ويا شر ماقرأت ! وعلمت ويا شر ماعلمت ! علمت ان صاحب هذا الكتاب صديق لى متصل بى ، يتكلف المودة ويظهر النصيحة والاخلاص ، ولكنى علمت انك لست صاحب هذا الكتاب ولا مقترف هذه الوشاية .

وخرجت من الجامعة راضيا ساخطا ومسرورا محزونا . راضيا لان البغية لم تفلت منى ، وراضيا لانك أنت لست الواشى بى وساخطا لما انطوت عليه جنوب الناس من المكر والخداع ، ومن الكذب والنفاق ، ومن الحسد الذى يفسد عليهم كل شىء .

فلم يكن لهذا الصديق الذى وشى بى طمع فى البغية ولا طموح اليها ، وانما هو الحسد وحده . رأى أنى سأسافر الى حيث لا يستطيع ولا يأمل أن يسافر ، ورأى أن حالى قد تتغير وان حياتى قد تصلح ، وانى قد أرقى الى منزلة لايستطيع ان يطمع فيها ولا أن يسمو اليها ، فكره ذلك وضاق به ، ثم جد فى أن يحول بينى وبين ذلك ، وأن يمسكنى فى المنزلة التى أمسكته فيها

الظروف ، فأبقى مثله خاملا متواضعا محدود الأفق من البيت الى الديوان ، ومن الديوان الى البيت ، والقهوة بين ذلك أحيانا .

نعم أيها الصديق ! خرجت راضيا وساخطا ، وانا لا افكر حين كنت أحس الرضا أو أجد السخط الا فى شىء واحد ، وهو أن كيدا كان يكاد فخلصت منه ، وأن مكرا كان يمكر بى فانتصرت على اصحابه وردت سهامهم فى نحورهم . ثم هبط بى القطار الى البحر ، وأخذت السفينة تمضى بى الى ماوراء البحر ، وأخذت صورة حميدة تلزمنى وتلح على ، وأخذ الندم يثير فى نفسى من الخواطر مايثير ، واذا أنا الان أسأل نفسى عن هذه الوشاية التى انكرتها : ألم تكن خيرا قد صرف عنى وحيل بينى وبين الانتفاع به ؟ فلو قد نجحت هذه الوشاية وحيل بينى وبين البعثة لكان هذا الاخفاق أول العقاب على ماجنيت من ذنب ، ولكان نذيرا بما كان ينتظرنى من الشر أن تممت على مابدأت من الظلم ، ولكان خليقا أن يردنى الى حميدة أو أن يرد حميدة الى . ولكن الله لم يرد الا أن يقدم بين يدى هذه الرحلة نذيرا بما ينتظرنى فيها من الآلام ، وطليعة لما ينتظرنى وراء البحر من الشر .

وصدقنى ايها الاخ العزيز انى لأدنو الآن من فرنسا خائفا وجلا شديد التشاؤم ، لا أنتظر خيرا ولا نجحا ، وانما أنتظر شرّا كثيرا واخفاقا شنيعا . ولو طاوعت نفسى لما استقررت فى مرسيليا الا ريثما آخذ السفينة التى تردنى الى مصر . ولكن ماذا يقول الناس ؟ وماذا أقول لنفسى ؟ وكيف لقى غيرك من الاصدقاء المخلصين ومن الاعداء الشامتين ؟ وماذا أقول لاهلى وماذا أقول لحميدة ؟ أأمضى فى فراقها . ولماذا وأنا لم افارقها عن قلى ولا عن بغض ؟ أم أعود اليها قادما بائسا معتذرا مستغفرا ؟ ولكن أتسمع لى ؟ أتعطف على ؟ ثم مانفع هذا الحديث الذى هو بالهذيان اشبه منه بالجد ؟ ان السفينة لتمضى امامها لاتلوى على شىء ولن تقف حتى تبلغ مرسيليا . ولو اردت ان اقفها لما بلغت من ذلك شيئا مهما يكن الحاحى وصياحى ، ومهما اتخذ من وسيلة عند القبطان . وانما حياتنا كهذه

السفينة تمضى بنا الى حيث يريد القضاء لا الى حيث نريد ، ومهما نلح ، ومهما نصح ومهما نتخذ من وسيلة ، فلن نقف حركتها ولن نردها الى وراء ولن نتقى الانتهاء الى هذه الغاية التى رسمها لنا القضاء .

فلأمض اذا الى حيث تريد السفينة أن تنتهى بى . ومن يدرى ! لعلى اعود اليك بعد حين ولم أر باريس ، ولم اختلف الى السربون ، ولم اشهد اندية اللهو والمتاع . ومن يدرى ! لعلى لا اعود اليك حتى آخذ من هذا كله بحظ . وكل ما أستطيع أن أقطع به الان هو ان هذه السفينة التى تعبر بى بحر الروم ستوفى بى من بعد بحر الى بحر ، كما يقول مسلم بن الوليد . ولكن البحر الذى ستوفى بى اليه ليس هذا ولا ذاك من اولئك الاجواد الذين كانوا يغنون الشعراء ، وانما هو بحر آخر عريض لا حد لعرضه عميق لا آخر لعمقه . هو بحر هذه الحياة الاوربية المملوءة باللذة والالم ، المفعمة بالخير الشر . فليت شعرى أأرسب فيه أم أطفو عليه ؟

الآن أحس انى قد اطلت عليك . وانما يذكرنى بك ويثير فى نفسى الاشفاق عليك من الاطالة هذه الحركات التى اسمعها تكثر من حولى فى الغرف المجاورة وفى الطريق امام هذه الغرف ، فقد فرغ السفر من لهوهم ورقصهم وعادوا الى غرفهم يقضون فيها مابقى لهم من الليل .

وداعا يملؤه الحب والود والحزن ايها الصديق ! فما ادرى ! لعلى لا اكتب اليك بعد هذا الكتاب .

١٣

اغسطس فى ...

أحسست كأنى اسمع صوتا يناديني من بعيد وكأنى ادنو من هذا الصوت ، او كأنه يدنو منى شيئا فشيئا . واستمر هذا الحس لحظة لست ادرى أطالت أم قصرت ، ولكنى وجدتنى قد

قربت من الصوت او قد قرب الصوت منى فاذا هو بين يدى، واذا أنا اسمع طرقا على الباب ، واذا انا اصيح دهشا اوكالدهش بلغتى العربية الشعبية :«مين؟»واذا الباب يفتح واذا شخص يدخل خفيفا رشيقا سريع الحركة ، سريع الكلام ، واذا هو يقول فى صوت امرأة : لقد أشفقت عليك ، ولقد حسبت انك لاتفيق، واذا هو يسرع الى النافذة فيجذب عنها الاستار ويفتحها ويأذن للشمس بالدخول . وانا دهش ذاهل ، ادعو نفسى واجمعها فتجتمع لى ، وانظر واشعر فاذا انا فى غرفة الفندق التى اويت اليها امس حين تقدم الليل . واذا الخادم قد أقبلت تحمل الى طعام الافطار ، واذا النهار قد تقدم حتى بلغ النصف او كاد يبلغه ، واذا انا اثوب الى نفسى واذكر من امرى ماكان قد ذاده النوم عنى ، فأعلم انى قد بلغت مرسيليا اثناء الليل امس ، وانى كنت متعبا مكدودا لكثرة ما أرقت ، وانى ذهبت الى أول فندق دلنى عليه ذلك الذى حمل أمتعتى ووضعها ووضعنى معها فى عربة واخذ منى ما أعطيته من نقد وقال للسائق الى فندق جنيف . وقد بلغت الفندق بعد الساعة العاشرة، فلم اقبل طعاما ولا شرابا ، ولم أزد على ان اجبت على ماوجه الى من اسئلة لم يكن منها بد ، وطلبت غرفة آوى اليها ، وأنبأت انى سأسافر من الغد الى باريس ، ثم لم اكد ابلغ الغرفة حتى خرجت من ثيابى ودخلت فى ثياب ، واويت الى السرير مسرعا أتمنى لقاء النوم واشفق كل الاشفاق ألا القاه . ولكنى لم اكد انزلق فى هذا السرير الوثير حتى احسست راحة وهدوءا ودعة لم اعهدها قط . فأين هذا السرير الوثير الذى اتقنت سويته مما ألفت فى دارنا فى ريف مصر، أو فى بيتى فى القاهرة من هذا الفراش الخشن الغليظ . لقد خيل الى انى لاانام على شىء او انى انام على فراش من الزئبق . كان جسمى يضطرب فى هذا السرير فلا يجد شيئا يقاومه او يثبت له ، انما كان يغوص فى الفراش غوصا . ولم اكد اطيل التفكير فى هذا ، ولم اكد افرغ للتفكير فى غير هذا مما شغلنى آخر ايامى فى القاهرة

واكثر ايامى وليالى فى السفينة ، وانما أخذت أفقد نفسى قليلا قليلا ، ثم لم اشعر الا بهـذا الصوت الذى كان يدعونى من بعيد والذى لم أكد ارد عليه حتى فتح له الباب ، واذا أنا ارى هذا الشخص الرشيق .

والان وقد دخلت الشمس هذه الغرفة فغمرتها ، وردت على اليقظة حسى كله وشعورى كله ، وذكرت فى لحظة قصيرة جدا كل ما انبأتك به ايها الصديق ، أنظر فأرى الخادم ذاهبة جائية ، تهيىء طعامى على المائدة وتدنى هذه المائدة من السرير ، فاخرج من غفلة النوم لادخل فى غفلة الذهول . فأين انا ؟ وما هذه العناية بى ؟ وماهذا الحرص على تيسير الامور كلها لى ؟ من زعم لهؤلاء الناس انى فى حاجة الى عنايتهم هذه الدقيقة ، والى رفقهم هذا الغريب ؟ هذا السرير الوثير ، وهذه الخادم تحمل الطعام الى وتفتح النافذة وتدنى منى المائدة لافطر فى سريرى اتراهم ظنوا انى مريض ! فما احسب انهم ظنونى غنيا من كبار الاغنياء ، فما كان وجهى لينبىء بذلك ، وما كان شكلى ليدل عليه .

والفتاة تتحدث وتتحدث والحديث ينبعث من فمها حلوا عذبا رقيقا : أحاول الان أن التمس له تشبيها فلا اظفر بما ألتمس ، وانما اصور لك الشعور الذى وجدته حين كان يصل هذا الحديث الى ويغمرنى فيملؤنى دعة وراحة ولذة وهدوءا . كنت اشعر كأن انسانا يرسل الى نفحات متصلة من الطيب تأخذنى من كل مكان . وكنت احاول ان أرد عليها بعض الحديث فلا اجد الى ذلك سبيلا ، لانها لم تكن تمكننى من ذلك من جهة ، ولانى لم اكن اريد ان اقطع هذه اللذة من جهة اخرى . حتى اذا هيأت لى كل شىء ودعتنى الى الطعام همت أن تنصرف ، فرد الى الرشد ، وثبت الى نفسى وسألتها مترددا متلهفا : ان تذهبين ؟ قالت ضاحكة : اذهب الى عملى . قلت : وما عملك ومن تكونين ؟ أو ليس من عملك ان تمكثى معى حتى أفرغ من طعامى ؟ قالت وهى تفرق فى الضحك : « أما عملى فهو هذا الذى رأيته

والذى ترى . واما أن أمكث معك حتى تفرغ من طعامك فليس من عملى وليس اليه من سبيل ، وماذا تكون الحال لو أنى مكثت مع كل من أحمل اليه الطعام من أهل الفندق حتى يفرغ من طعامه ؟ » ثم أرسلت الى نظرة فيها دعابة وابتسامة يملؤها الظرف ، ومضت مسرعة لا تمشى على الارض وانما تمشى فى الهواء ، ثم أغلقت من دونها الباب وتركتنى ذاهلا كالابله أمام هذا الافطار الذى تركته وقتا غير قصير معرضا عنه اعراضا ، ثم ناظرا اليه دون أن اقدم عليه .

وانى لفى ذلك واذا الباب يطرق ، فاذن فتدخل الفتاة نفسها قد أقبلت تحمل آنية الطعام ، فاذا رأت كل شىء كما تركته منذ حين سألتنى دهشة عن أمرى ، فأسرع الى الطعام ضاحكا وأنا اقول : ألم أطلب اليك أن تمكثى معى حتى أفرغ من الافطار ؟ لقد أبيت فلم أفطر ، وها أنت ذى تعودين ، فانظرى كيف سرع الى الطعام .

وكنت مزمعا أن أسافر مع المساء الى باريس ، ولكنى لا أدرى لم غيرت رايى ، أو لعلى أدرى لم غيرت رأيى ، فقد قضيت فى القاهرة أياما ثقالا واجهدنى عبور البحر لكثرة ما فكرت وقدرت ولكثرة ما أرقت وليس ما يدعونى الى أن أسرع الى باريس ، فليس الفصل فصل درس ، واللغة الفرنسية موجودة مسموعة حيثما وجهت من أرض فرنسا ، فما يمنعنى أن اقيم فى هذا الفندق الجميل المترف أياما اعود نفسى فيه حياة الفرنسيين وأخذ نفسى بما لابد من أن أخذها به من العادات والتقاليد حتى لا أظهر غريبا مضطربا حين أصل الى العاصمة ؟ وما يمنعنى ان أعود نفسى العبث فى مياه البحر على الساحل قبل أن ابعد فى السباحة وقبل أن اضطر الى مصارعة الامواج الضخام ! ، لامكث اذن فى هذه المدينة أياما أستمتع فيها بالراحة وأتمرن فيها على الحياة الجديدة ، وانعم فيها بدخول هذه الفتاة على تحمل الافطار الى اذا أصبحت ، فمن يدرى أين يكون مستقرى

فى باريس ! ألجد غرفة كهـــذه الغرفة ، وسريرا كهذا السرير ، وفتاة كهذه الفتـــاة تحمل الى الطعام فى كل صباح ؟ وهـــذه المدينة وسط بين الجو الاوربى الخالص والجو الافريقى الخالص فهى على البحر الابيض المتوسط وفى الانتقال الفجائى من جو الى جو خطر على صحة الجسم ، وقد يكون فيه خطر على صحة النفس أيضا ، فلاصطنع الاناة ولادع هذه العجلة فانها لاشك من الشـــيطان ، وما يمنعنى ان أستأنى وقد تركت مصر وجعلت من بينها وبينى بحرا عريضا ، فلست أخاف على البغثة ، ولست أخشى أن ارد عن باريس .

وكذلك خلقت لنفسى ايهـــا الصديق من التعلات والمعـــاذير ما أقنعنى بأن الاسراع الى باريس خطل وحمق ، وما حملنى على أن أنبىء أصحاب الفنـــدق بانى ساقيـــم أياما ، وعلى ان اقدم على الكذبة الاولى فى حياتى الجديدة فاكتب الى مراقب البعثـــة بانى متعب محتاج الى الراحة ، وبأنى سأبلغ باريس بعد أسبوع

والغريب انى قضـــيت النهار هادئا مستريحا ، لا أكاد افـــكر فيمـــا تركت ولا فيمـــن تركت ورائى قبل أن اعبر البحر ، ولا أكاد أشعر بشىء من هـــذا الالم أو هذا الندم اللذين كانا يثقلان علـــى فى السفينـــة ، واللـــذين صورتهما لك تصويرا مخيفا فى آخر كتبى اليك ، واللذين كنت أظن أنهما سيلزماننى لزوم الظل لم اكد اشعر بشىء منهما . ماذا اقول ! بل لم تتراء لى صـــورة جميدة الا مرتين أو مرات قليلة وكانت تتـــراءى لى من بعيـــد شاحبة الوجه كاسفة البال بادية الحزن ، ولكنى كنت اراها مسرعة كأنها لا تريد أن تقف عندى ولا أن تثبت لى

وهأنذا اكتب اليك الآن بعد ان عـــدت الى غرفتى وقد كاد يبلغ الليل نصفه ، ونظرت فاذا الغرفة قد هيئت لاســـتقبالى ، واذا السرير قد هيىء لايوائى ، واذا دورق من الماء وكوب قد وضعا على هذه المائدة الصغيرة التى تلى السرير ، [illegible] ماتعودت مثـــل هـــذه العناية . ولقـــد كان الظمـــ[illegible]

الريف ، ولقد كان الظما يوقظنى فى القاهرة ، فما كنت اجد الى اتقائه سبيلا الا ان اتكلف النهوض والسعى الى حيث وضعت هذه الجرار الصغيرة التى كانت تبرد لنا الماء . فاما الآن فان الظمأ يستطيع أن يهجم علي وأن يوقظنى ، فسأعرف كيف ارده ردا ، وكيف اعود الى النوم كما خرجت منه لا اجد فى ذلك جهدا ولا عناء

على انى لم أكد أرى هذا الدورق وأفكر فيما كان يعتادنى من الظمأ فى مصر حتى احسست الظما ، فاصب شيئا من الماء احسوه فى هدوء . ولكن ماذا ؟ انه لا يرد عنى ظمأ ولا ينقع لى غلة ، وانى لا اجد له لذة حين احسوه ، ولكنى اذكر قصة الاخطل وحديثه حين عرض عليه الماء فى مجلس عبد الملك فقال : شراب الحمار

ولست حمارا ياسيدى مهما يكن رأيك فى وفى ذلك الشيخ ، او قل كنت حمارا قبل ان اعبر البحر ، فلما دخلت هذا الفندق ، وصعدت الى هذه الغرفة وأويت الى هذا السرير ، وانغمست فى فراشه الوثير ، وادركنى ما ادركنى من النوم العميق ، وأيقظتنى هذه الفتاة ذات الوجه المشرق والثغر المضيء والحديث الحلو والروح الخفيف ، نظرت فاذا انا لم ابق حمارا ، واذا انا قد مسخت انسانا أو قل صورت انسانا ان كانت كلمة المسخ لاترضيك ، ولكنى على كل حال قد دخلت النوم حمارا وخرجت منه انسانا يحس ويشعر ويعقل ويذوق لذة الجمال ويعرف كيف يستمتع بسحر العيون . اصبحت انسانا ، وذكرت قصة الاخطل ، فعفت شراب الحمار ، وآليت لا ارد الظمأ الا بمثل ماورده به الاخطل . ولا تغضب ياسيدى ولا تثر ، فانا فى بلد قلما يشرب اهله الماء . ولقد شهدت غداء الناس وعشاءهم ودهشت حين سألنى الخادم ماذا اريد ان اشرب ، فلما طلبت اليه الماء أظهر دهشا لم يكن اقل من دهشى حين القى على سؤاله . ثم اقبل على بالماء ، وبعد لحظة حدق النظر فى ، ثم

قال : الا يريد سيدى شيئا من النبيذ ؟. فلما ابيت قال متبسطا فى لغة اهل الجنوب ولهجتهم : « سيدى مخطىء فالماء لاينقع الغليل هنا » . ثم انطلق وعاد الى بعد لحظة ومعه دورق فيه نبيذ. ونظرت فلم أر الماء فى حجرة الطعام كلها الا على مائدتى ، فاستحييت وشربت كما يشرب الناس . وكنت احسب ان الخادم انما يرغبنى فى النبيذ ترويجا لتجارة الفندق ، فلما فرغت من طعامى عرفت أن الناس يشربون النبيذ فى هذا الفندق كما يشربون الماء لايدفعون له ثمنا ، او هم يؤدون ثمنه فيما يؤدون من ثمن الغداء والعشاء . آليت اذا يسيدى ألا ارد الظمأ بشراب الخمار ، وازمعت ان ادفعه بهذا الشراب الذى لم انتظر قدومى الى فرنسا لاعرفه وهو الجعة ، فأدق الجرس وانتظران يطرق الباب وان يفتح وان تدخل على هذه الفتاة . ومن يدرى ! لعلى لم أزدرد الماء ولم أفكر فى قصة الاخطل ولم أبتغ هذا الشراب الحرام الا تعلة لادق هذا هذا الجرس ، ولتدخل على هذه الفتاة ، وليكون بينها وبينى طرف من حديث يقصر او يطول . فقد جعلت اتهم نفسى فى كل ما آتى وفى كل ما اريد منذ استيقظت ظهر اليوم . وانى لاتبين ان منظر هذه الفتاة وعذوبة حديثها وخفة روحها وحسن خدمتها ودخولها على مع الصبح واذنها للشمس ان تغمر غرفتى ، كل هذا هو الذى يطمأنى عن باريس وحبب الى المقام فى هذا الفندق . فانا اذا فكرت او قدرت او هممت او فعلت ، أسأل نفسى لعل من وراء هذا التفكير والتقدير ولعل من وراء هذا الهم والفعل غرضا خفيا غير ماتوخيت من الاغراض الظاهرة . والباب يطرق وانا اعلن الاذن بصوت مرتفع تظهر فيه اللهفة وقليل من الاضطراب . والباب يفتح ، ولكن ماذا ارى ! ارى رجلا شابا قد اقبل فاترا متثاقلا وقال فى صوت خافت يملؤه الكسل والسأم والضيق : سيدى يريد ؟ قلت وانا اتكلف كظم مايملؤنى من الغيظ واخفاء مالا اشك فى انه ظهر على وجهى وفى عينى من خيبة الامل قلت وكأنى ألقيت فى وجهه ماقلب القاء : اريد زجاجة من الجعة

قال : نعم صغيرة أم كبيرة ؟ قلت مغضبا : أكبر ما عندك . ثم انصرف عنى وعاد الى بزجاجته وقدحه . فلما هم ان ينصرف قلت : فقد احتاج الى أخرى ، وما أحب ان اشق عليك حين يتقدم الليل . قال مبتسما : ان سيدى لظريف ، ولكن عندى ما يريد سيدى . ثم مضى وعاد بانا فيه الثلج وفيه زجاجة اخرى من الجعة ، وتمنى لى ليلا سعيدا ، وأغلق من دونه لباب .

ولعلك تنكر ايها الصديق اقبالى على الشراب ، وعلى الشراب خاليا ، وعلى الشراب بعد ان كذب الظن وخاب الامل . ولكن ما رأيك فى ان كذب الظن وخيبة الامل ، هما اللذان دفعانى الى الشراب دفعا ، فقد وجدت على الحظ وسخطت على الزمان ، وأبيت ان اذعن لمكر الاقدار وغدر الظروف ، واقسمت لا اذوق النوم حتى أرى وجه هذه الفتاة المشرق وثغرها المضيء واسمع حديثها الحلو واستمتع بروحها الخفيف . وأى شيء أعون لى على السهر من الشراب والتفكير فيها والكتابة اليك ! لا تغضب ، فما كنت لاكتب اليك لولا أن أخلف الحظ ظنى وكذب أملى ، واضطرنى الى أن أستعين بك على الليل فى موسيليا ، كما كنت أستعين بك على الليل فى القاهرة . لا تغضب ، فقد عرفتنى أوثر الصدق على الكذب ، واكره أن أغشك أو أخفى عليك ما أجد . ولو خيرنى الحظ بين زيارة هذه الفتاة لحظة قصيرة تهدأ لها نفسى الثائرة وتستقر لها خواطرى المضطربة ، ثم آوى الى السرير لانام ، وبين لقائك أو الكتابة اليك ، لما ترددت فى أن أرجىء لقاءك والكتابة اليك الى غد حين يشرق النهار وتملك النفس صوابها كله وأمنها كله ، ويفكر العقل فى غير فتور ولا قلق ولا اضطراب . ما أظن أنك ستمضى عن هذا الكتاب ، فليس فيه شيء يرضيك ، وليس فيه شيء يرضينى . وما كتبت اليك لارضيك ولا لارضى نفسى ، وانما كتبت اليك انتظارا لمطلع الشمس

ما أسرع ما تتغير نفس الانسان ! بل ما أسرع ما تغيرت نفسى ! فصدقنى أنى أنكرها أشد الانكار ، ولا أكاد أصدق أن هذه النفس التى كانت هائمة بحميدة . محزونة بل جزعة لفراقها ، نادمة

أشنع الندم وأبشعه على ماقدمت اليها من مساءة واقترفت فى ذاتها من اثم — لا أكاد أصدق ان هذه النفس التى لم تكن تذوق النوم الا غرارا « مثل حسو الطير ماء الثماد » كما يقول شاعرك القديم، قد نسيت أو كادت تنسى حميدة وفراقها وطلاقها ، ومحيت منها أو كادت تمحى صورة حميدة قائمة فى غرفتنا تلك تنهل دموعها الصامتة . لقد كانت هذه الصورة تؤرقنى الليل ، وتنغص على النهار ، ويملأ سنوحها لى قلبى فرقا وذعرا . فأنا الان أنتظرها فلا تسنح لى ، وأدعوها فلا تستجيب لى ، وألح فى الدعاء فى الاستحضار فأتمثلها شاحبة واجمة ، وكأنى أستحضر روحا من أرواح الموتى . وهى لاتثبت بعد أن أجهد نفسى فى دعائها واستحضارها ، وانما تمر بى مرا سريعا كأنها الطيف .

كيف انتقلت من طور الى طور، وكيف تغيرت من حال الى حال ! أكنت خيرا فأصبحت شريرا أم كنت شريرا أتكلف الخير ، فلما بلغت هذا البلد ألقيت عن نفسى أعباء التكلف وأثقاله وظهرت لنفسى كما أنا ، لا متحفظا ولا متأففا ؟ أم ماذا ؟ انى لفى حيرة لاأعرف لها حدا ، ولكنى على ذلك كله راض عن نفسى بعض الرضا، بل كل الرضا . أترى أنى أسأت حين قطعت مابينى وبين حميدة من الاسباب ؟ عسى لم أفعل ، أفكان ما بينى وبين حميدة من الصلة يعصمنى من الشر الذى أنا مدفوع إليه ، أم كنت أدفع الى الشر دفعا وأقترف الاثم اقترافا لا أحفل بحميدة ولا بحبها ولا بهذا العهد المؤكد الذى قطعته لها بالوفاء ؟ . فأنا مدفوع الى الشر مافى ذلك شك ، وأنا عاجز عن المقاومه ، وأنا أسأل نفسى دون أن ألح عليها فى السؤال : أليس يمكن أن تكون هناك قوة خفية ماكرة قد دفعتنى الى ماوراء البحر لالقى بى هذه الارض الغريبة كيدا يدبر وأمرا يراد ، ولاكون نهبا لشياطين الاثم والغواية والفساد ؟ انا ألقى على نفسى هذا السؤال منذ رأيت هذه الفتاة ففتنت بها ، ولكنى أكره ان أطيل التفكير فيه مخافة ان يثوب الى الرشد وان يرد لى الصواب من عنده ، وان أتبين

ها انا مقدم عليه . ولست اريدان اتبين ما انا مقدم عليه الآن ، وانما أريد ان اتبين الشر ان كان هنالك شر بعد ان انورط فيه ؛ لماذا ؟ لست ادرى . ولكنى لست أستطيع أن أقف ولا أن أتأخر ، انما أنا شيء قذفت به قوة عنيفة من قمة الجبل فهو يتدحرج على السفح لايستطيع ان يمسك نفسه ولن يستطيع أن يمسك نفسه ، حتى يبلغ الحضيض فتمسكه الارض السهلة المستوية اكنت ملحا فى طلب البعثة رغبة فى العلم الذى كنت أزينه لنفسى ام رغبة فى هذه الابواب من الفتنة التى لم اكن استطيع ان استفتحها فى مصر ، والتى لست احتاج ان استفتحها فى فرنسا لانها تفتح لى وحدها ؟

ماذا أقول ايها الصديق ! أترانى جننت أم ترانى سكرت ؟ كلا ! لست مجنونا ولا سكران . وهاتان الزجاجتان لم أمسسهما وانى لاتبين كل ماحولى ، وانى لاعرف انى اكتب اليك ، وانى لاستطيع ان انبئك من امرنا بما لايحسن المجانين ان ينبئوا به . ولست مجنونا ولا سكران ، ولكنى عاقل محكم العقل واضح الرأى صافى الذهن . انظر فى المرآة فارى نفسى منكرة بشعة واخجل منها حين انظر اليها اكثر من خجلى منك حين اكتب اليك . نعم لست مجنونا ولاسكران ، ولكنى رجل يزدرى نفسه أشد الازدراء ويمقتها ابشع المقت . وكيف تريدنى على ألا ازدرى نفسى وانا لا اكادارى خادما مبتذلة تحمل الى الطعام وتبسم لى وتتحدث الى ، كما تحمل الطعام لعشرات من امثالى وتبسم لهم وتتحدث اليهم ، بالصوت نفسه وباللهجة نفسها وبالدعابة نفسها ، لا اكاداراها مع هذا كله حتى يجن بها جنونى ويفتن بها قلبى ، وارجىء من اجلها الرحلة الى باريس ، واقضى من اجلها الليل مسهدا ارقا ، استعين على انتظارها وعلى انتظار الصبح بالكتابة والشراب !

لست مجنونا ولا سكران ، بل لست ادرى من أنا ولا ماعسى ان اكون . لقد زعمت لك منذ حين انى كنت حمارا قبل ان

أعبر البحر فردتنى هذه الفتاة انسانا . فصدقنى ! انى لا أرى نفسى انسانا ! ولا اعرف من اى نوع انا بين الانواع الخسيسة الدنيئة من الحيوان

الى اللقاء أيها الصديق لا أحب أن أطيل فى هذا الحديث فانى اخشى ان أخرج من طورى، وان ادفع الى هذا الجنون الذى انكره وأبرأ منه

الى اللقاء ! لو انى عقلت واحكمت امرى لانصرفت عنك الى هذا السرير الذى يدعونى الى الراحة والنوم . ولكنى اعلم حق العلم انى لن أستريح ولن انام ، وانى ساقضى الليل ان أويت الى فراشى لعبة لصورتين مختلفين أشد الاختلاف ، احداهما تخيفنى حتى تبلغ بى أقصى الخوف ، والاخرى تغرينى حتى تنتهى بى الى غاية الاغراء . احداهما حميدة البائسة ، والاخرى هذه الفتاة الخادم التى لا اعرف من امرها شيئا الا انها جميلة رشيقة حلوة الحديث خفيفة الروح ، تحمل الطعام وتبسم للاضياف . كلا ! كلا ! انى لأكذب عليك واكذب على

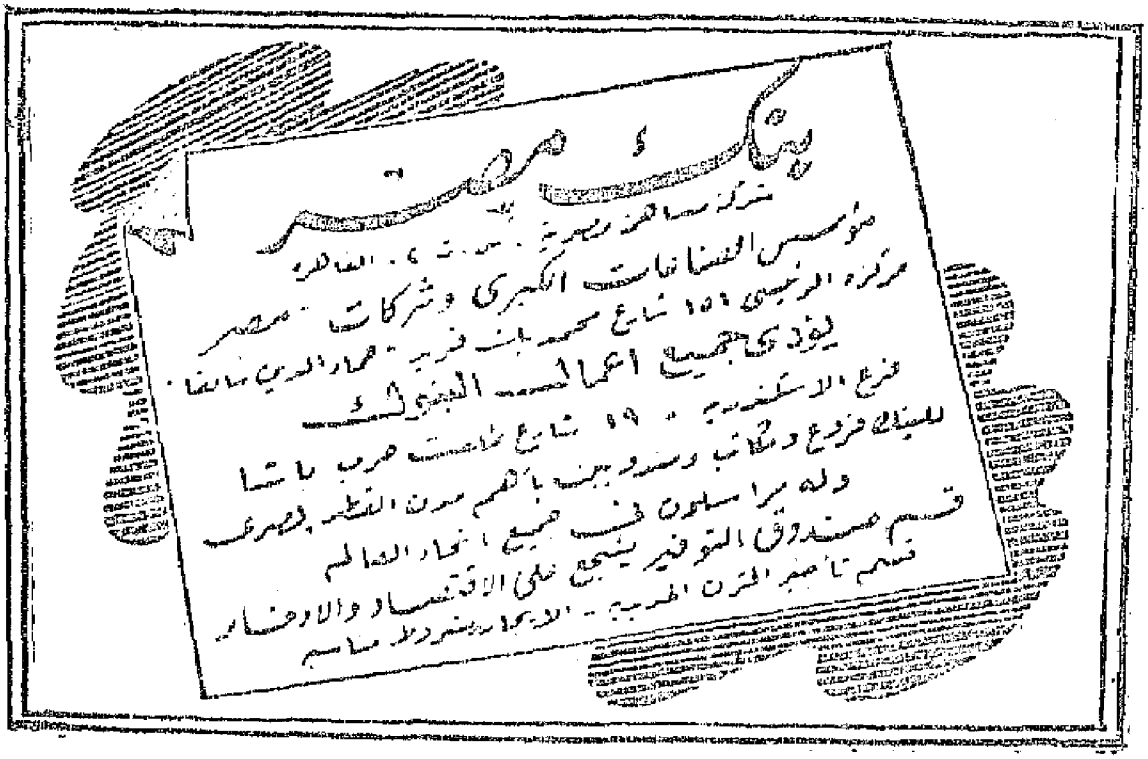

نفسي . اني لاعرف من امرها اكثر من هذا قليلا : أن اسمها « فرنند »

الى اللقـــاء أيها الصـــديق !لاشـــغلن نفسي عنك وعن هاتين الصـــورتين بمصـــارعة هاتين الزجاجتـــين ، فاما ان تصرعاني فأستريح حتى توقظني هـــذه الفتاة من غد ، واما ان اصرعهما فليس الجرس ببعيد . وعلى اذا ازعجت الخـادم وكلفته أن يحمل الى زجاجة أو زجاجتين !

الى اللقاء !

١٤

اكتوبر في ....

ليست الحياة لعبا أيهـــا الصديق ، أو قل ليست الحياة كلها لعبا . والجنون مباح على أن يكون قليلا ، فان طال فمصير صاحبه الى مستشفى المجانين . وقد أشفقت ان يطول جنوني ، وقد اشفقت ان ادفع الى هـذا المستشفى ، ولكني افقت بعد لاى ورشدت بعد غي ، وكان اول مالقيته في فرنسا شرا ، ولكني ارجو ألا استقبل فيها منذ اليوم الا خيرا متصلا

أنا أكتب اليك من باريس بعد أن أقمت فيهـا اقامة المستقر لا اقامة الزائر الملم . فستبـدأ الحياة الجامعية بعد أيام ، ولابد من الانتســـاب الى الجامعـــة والاختـــلاف الى الدروس ، ولا رددت الى القاهرة اشـــنع رد . وكيف ألقـــاك ! وكيف ألقى اصحابنا ! وكيـــف ألقى امـــلي واصـــحابهم في الريف ! وماذا اقول للناس ! وماذا اقول لصورة حميدة ان عرضت لي فسألتني ماذا افدت من المكث في باريس أو في غير باريس من مدن فرنسا ! وماذا أقول لصورة حميـــدة ان سألتني مذ جئت من هـــذا الطلاق الذي اقدمت عليه في غير أناة ولا رشد ولا تفكير !

نعم ! لابد من الانتســـاب الى الجامعة والاختلاف الى الدروس وأوضاء الاساتذة الذين [illegible] مراقب البعثة الذي

اعرفه واحبه اصدق الحب واقواه ، وارضاء نفسى التى لا أدرى أأوفق الى ارضائها أم اعجز عنه ! فانها بعيدة المطمح شديدة السخط على منذ عبرت البحر

لابد من الانتساب لى الجامعة، والاختلاف الى الدروس ، وارضاء مراقب البعثة لاظفر بثقته واحترامه ! فانا فى حاجة شديدة اليهما ، وانا لم اظفر منه الى الآن الا بالعطف والبر والاشفاق بعد السخط الذى ليس فوقه سخط والغضب الذى لايشبهه غضب . فقد كلفته من المشقة مالم يكلفه احد من قبلى ، وقد حملته من الجهد مالم أحمله احدا من قبله . فلم تكن هذه الاسابيع التى انفقتها فى فرنسا نعمة ولا راضية ، ولم يكن يملؤها الهدوء والاطمئنان وانما كانت اسابيع بؤس وجنون وشقاء ومرض أيضا . وكتمت على ! فان أحدا من المصريين فى باريس لم يعرف مما اصابنى شيئا ، وانت اول من يعرف قليلا من امرى بعد مراقب البعثة ؛ هذا الصديق الفرنسى الذى يعرف من امرى كل شىء، ويكتم من امرى كل شىء ، ويعنى بأمرى عناية الاخ المحب الرفيق، والذى استطاع ان ينقلنى من فساد لا حد له الى اصلاح ارجو الا يكون له حد

انا اكتب لك من باريس بعد ان اقمت فيها اقامة الساكن المستقر لا اقامة الزائر العالم . فقد زرت باريس فى الصيف ، ولكنى لم اقم فيها الا يومين اثنين لقيت فيهما مراقب البعثة وعرفته بنفسى ، وقلت له وسمعت منه ، ثم استأذنته فى ان أترك باريس حتى ينقضى الصيف . ولم ير بذلك بأسا ، ولعله رأى فيه خيرا ! فقد كان يحب الا القى المصريين لاول عهدى بفرنسا ليتمرن لسانى على اللغة ويحسن حديثى الى اهلها وفهمى عنهم . وقلت له انى احب ان اعود الى ساحل البحر الابيض المتوسط لان جوه قريب من جو مصر ، فلم ينكر ذلك ولم ير به بأسا . وكتبت اليه بعد ذلك من مارسيليا وزين لى مدينة قريبة منها على ساحل البحر ليست هى مدينة « كان » .

فاظهرت الطاعة له والقبول لرأيه . والغريب انه منحنى أجر السفر على حساب الجامعة للذهاب والاياب . وتركته وتركت باريس ! ولكنى لم اذهب الى « كان » ولم انزل فى الفندق الذى سماه لى من فنادقها الابعد ان مررت بمرسيليا . . واقمت فى فندق جنيف اياما ، واستوثقت من انى لن اكون وحيدا فى « كان » .

ولم لا ؟ ان لفرنند وان كانت خادما الحق فى ان تستريح وتصطاف كما يستريح السادة ويصطافون . وما يمنعها ان تستريح وتصطاف اسبوعين حيث استريح انا واصطاف ! !

وكذلك لم اسافر من مرسيليا الا بعد ان قدمتها بين يدى الى « كان » فى قطار الصباح ، والحقتها فى قطار من قطارات المساء ، ولا تسل بعد ذلك عن هذه الايام الحلوة المرة ، المشرقة المظلمة التى قضيتها فى هذه المدينة مع فرنند فى أول الامر ، ثم وحيدا بعد أن آن لفرنند ان تعود . ولا تسل عما جنته على هذه الوحدة من السيئات والآثام ! فانت اكرم على وأحب الى من ان اقص عليك تفصيلها المنكر البشع . وانت لاتقرأ كتبى بنفسك ، وانما يقرؤها عليك غلامك الاسود الصغير . وحسبك ان تعلم انى رجعت الى باريس متعبا مكدودا . استغفر الله : بل مريضا مشرفا على اعظم الخطر واشده نكرا . ولولا مراقب البعثة لما برئت . وان له عندى ليدا ما اعرف انى استطيع مكافأتها الا بالجد الذى يرضيه . ولابلغن من هذا الجد ما اريد واكثر مما اريد

لا تغضب ان انقطعت عنك كتبى ! فما اظن انى سأفرغ للكتابة اليك قبل ان يمضى وقت طويل .

١٥

وكان طويلا حقا هذا الوقت الذى انقطعت عنى فيه رسائل صاحبى . وقد كنت اقدر انه سيتركنى شهرا او شهرين .

وكنت اظن انه لن يستطيع أن يبلغ هذا الامد دون أن تثور به خواطره هذه الغريبة فترده الى يلتمس عندى شيئا من الامن وراحة النفس واستقرار الضمير . ولكن الاسابيع مضت فى أثر الاسابيع ، وانقضت الاشهر فى اعقاب الاشهر ، دون ان أتلقى من صاحبى كتابا او شيئا يشبه الكتاب . والغريب انه لم يعرض عن الكتابة الى وحدى ، وانما انقطعت عن اصحابنا هذه الجمل القصار التى كان يرسلها اليهم على بطاقات البريد ، وانقطعت اخباره حتى عن اهله فى الريف . فكثيرا ماكتب الى أبوه الشيخ يسألنى اوصل الى من أنباء ابنه شيء ، فكنت ارد عليه بأن ابنه فى باريس على خير حال ، يختلف الى السربون ، ويرضى اساتذته ، ويرضى مراقب البعثة ، ويرضى الجامعة المصرية عنه احسن الرضا . ولم اكن اعلله بالاماني ولا اقول له غير الحق ، وانما كنت أسأل عن صاحبى فى ادارة الجامعة ، واعرف منها انه بخير وانه يجد فى الدرس جدا غير مألوف ، ويظهر من التفوق مالم يألفه الاساتذة الفرنسيون من الطلاب المصريين . ولم اكن اجد فى هذا غرابة ! فقد كنت اعرف من ذكاء صاحبى الشاذ واستعداده النادر مالم يكن يعرف غيرى من الذين اتصلوا به وخالطوه . وكانت هذه الانباء تكفينى وترضينى ، وتقوم له بالعذر عندى عن انقطاع رسائله عنى ، وتملأ نفسى حبا له واعجابا به وشوقا اليه وحرصا على ان يتاح لى ما اتيح له من الحظ فأعبر البحر كما عبره . ولكنى كنت اقسم لئن بلغت مرسيليا لأجتنبن المقام فيها الا ريثما يحملنى القطار الى باريس ، وكثيرا ماكنت اسخر من نفسى حين كان يخطر لى هذا الخاطر . فماذا اخاف من مرسيليا ! وماذا أخاف من فندق جنيف ! وماذا اخاف من فرنند وامثال فرنند ! وما انا وهذه الفتن التى لم تصل الايام بينى وبينها سببا ، ولم تجعل الايام لها على نفسى سبيلا ! وما أنا وهذه الفتن وقد كنت غارقا فى الدرس والتحصيل أتأهب لامتحان الازهر الذى اخفقت فيه اخفاقا بشعا ، وأتهيأ لامتحان الجامعة الذى نجحت

فيه نجاحا حسنا !ثم ما اناوهذه الفتن وقد كنت غارقا فى ادب ابى العلاء وفلسفته ، متمثلا لهذه الفلسفة ، متكلفا لتشاؤم شيخ المعرة ! وكثيرا ماكنت اخدع نفسى وأغراها ، وأزعم لها أنى سأذهب الى باريس كما ذهب ابو العلاء الى بغداد . ومن يدرى ! لعلى أعود من باريس ، كما عاد ابو العلاء من بغداد ، فألزم قرية من القرى واقيم فيها لااريم . ولم اكن فى حاجة الى ان أطلب الى اهل هذه القرية كما طلب ابو العلاء الى أهل المعرة ألا يكلفوه ان ينفر معهم من القرية اذا اغار عليها الروم ! فلم أكن أخشى أن يغير الروم على قريتى فى أدنى الصعيد أقصاه . وكذلك كنت مشغولا بجد الدرس وغرور الشباب عن هذه الفتن التى تعرض لها صاحبى ، فأفسدت عليه خلقه ودينه وصحته ، وكادت تنتهى به الى الموت .

ثم ينقضى العام ويتقدم الصيف ، واذا الانباء تأتى من باريس بأن صاحبى قد فصل الاجازة ، فأتم فى عام واحد مالايتمه غيره فى اعوام ، وتقدم الى امتحان ذى بال فنفاز فيه وفاز بتهنئة الاساتذة ايضا . وهو مع ذلك لايكتب الى ولايفكر فى . وقد كنت أظن ان فوزه فى الامتحان وفراغه للراحة سيردانه الى صديقه لحظات قصارا أو طوالا .

ولكن الصيف كله ينقضى وأنا ألح عليه بالكتب فلا أظفر منه بشىء . حتى اذا كان شهر اكتوبر تلقيت منه هذه الاسطر :

اكتوبر فى ...

انك تنتظر أن أكتب اليك لاصف لك حياتى فى باريس . وما كان أحب الى أن أفعل ! ولكن حياة باريس لا توصف فى الكتب والرسائل ، ولاسبيل لك الى ان تعرفها مقاربة الا اذا حييتها . على أنى أحب أن أصور لك شعورى فى باريس تصويرا مقاربا غير دقيق . ولن يكون هذا التصوير كلام أكتبه اليك ! فالكلام كما قلت لا يغنى فى باريس شيئا . لكن اذهب الى الاهرام ، فما أظن أنك ذهبت اليها قط ، وامعن فى اعماق الهرم الكبير ، فستضيق

فيه بالحياة وستضيق بك الحياة، وستحس اختناقا وسيتصبب جسمك عرقا ، وسيخيل اليك أنك تحمل ثقل هذا البناء العظيم، وأنه يكاد يهلكك، ثم أخرج من أعماق هذا الهرم واستقبل الهواء الطلق الخفيف، وأعلم بعد ذلك أن الحياة فى مصر هى الحياة فى أعماق الهرم ، وأن الحياة فى باريس هى الحياة بعد أن تخرج من هذه الاعماق • واجتهد فى أن تتم ما بقى لك من درس فى القاهرة ، وتؤدى مابقى لك من امتحان • واجتهد أيضا فى أن تستبقى رضا الذين يحبونك ويشجعونك ويريدون أن تتم درسك فى باريس • وأسرع الى باريس متى استطعت فانى أنتظرك فيها ، وما أكثر ماسيكون بينك وبينى من الاحاديث !

١٦

وتنقضى السنة الدراسية كلها لايصل الى فيها من صاحبى كتاب ولا نبأ • وانما أسأل عنه فى الجامعة كما كنت أسأل فى العام الماضى ، فأعرف من أنبائه كما كنت أعرف فى العام الماضى انه مقبل على الدرس فى نشاط وتفوق ، وقد أخذ يدرس اللاتينية بعد أن أحسن الفرنسية احسانا لا بأس به • وأنا أكتب الى أبيه الشيخ بما أعرف من أنبائه وأتحدث بها الى أصحابنا ، حتى أصبح اسمه بيننا رمزا للجد فى العمل وللتوفيق فى الحياة •

وقد تهيأت لى أسباب الرحلة الى فرنسا على خير ماكنت أحب • وانى لاستعد للرحيل متنقلا لذلك بين القاهرة والصعيد ، واذا الحرب الكبرى تعلن ، واذا كل شىء يتغير فى حياة الافراد والجماعات ، واذا رحلتى تؤجل ، واذا أنا مضطر الى أن أقيم فى القاهرة بائسا محزونا سيىء الحظ خائب الامل • وتأتى الانباء بأن الطلاب المصريين قد هجروا باريس كما هجرها كثير من الفرنسيين ، وكما هجرتها الحكومة الفرنسية نفسها حين دنت منها جيوش العدو • ولكنى أتلقى من صاحبى هذا الكتاب .

أغسطس فى ...

لقد زلزلت الارض زلزالها ، واضطرب فيها كل شىء وكل انسان أيها الصديق ، وما أحاول أن أصف لك من أمر الحرب شيئا ، فأنت تقرأ من ذلك فى الصحف المصرية والاجنبية مالا أستطيع أن أبلغه ولا أن أقاربه . وانما أكتب اليك محزونا لان الظروف لم تهيىء لك الرحلة التى كنت ترجوها وتعقد بها الامال ، والتى كنت أنا أرجوها وأنتظر منها خيرا كثيرا . فليس لى بين المصريين المقيمين فى باريس صديق آنس اليه ان سرتنى الحياة ، أو أستعين به ان ساءتنى . وانما نحن قوم متخاذلون متنافسون ، يبغض بعضنا بعضا ، ويمكر بعضنا ببعض ، ويكيد بعضنا لبعض فى كل شىء ولسبب ولغير سبب . قد طوى كل واحد منا نفسه عن أصحابه ، فجهل كل واحد منا من أمر أصحابه كل شىء الا هذه الامور الظاهرة التى ليس الى جهلها من سبيل . فنحن نعرف من يختلف الى السوربون فى مواظبة ، ومن يزورها لماما ، ومن ينفق يومه فى البيت وليله فى القهوة . ونحن نعرف من يعبث مع هذه الفتاة من بنات الغى ، ومن يدور حول هذه الفتاة من طالبات العلم . ونحن نعرف من تفسد عليه الغواية حياته كلها ، ونعرف من يلهيه تتبع الطالبات فى غير نفع عن الدرس والتحصيل . ونحن نعرف من يكتب الى أهله بالاكاذيب ويخدعهم بالاماني ، ويستخلص منهم المال بالحق والباطل ، وينفق حياته كلها فى اللهو واللعب . ونحن اذا لقى بعضنا بعضا لم نتحدث الا فى هذا ، ولم نستعن بأنفسنا الا بهذا . وأظنك تعلم أن ليس لى فى شىء من هذا أرب ولا لذة . فأنا وحيد بين المصريين فى باريس وان لم أكن وحيدا بين الفرنسيين ، فقد اتخذت لى منهم أصدقاء أحبهم ويحبوننى وآمن لهم ويأمنون لى . ولكنى ألاحظ أن لى نفسين : نفسا تأنس الى الفرنسيين ، وتجد اللذة فى عشرتهم وأحاديثهم ومشاركتهم فيما يأخذون فيه من الجد واللهو ، ونفسا أخرى مشوقة أبدا ، ملتاعة أبدا ، تحب أن تسمع صوتا

مصريا صادقا ، وأن تأمن الى قلب مصرى صادق • على أنى قد حرمت لقاء المصريين والفرنسيين جميعا • فأما أولئك فقد فروا بأنفسهم من الموت الذى يقال انه قد يغزو باريس • وأما هؤلاء فقد دفعوا بأنفسهم دفعا الى لقاء الموت ليردوه عن باريس • وقد أنفت أن أفر مع أولئك ، وضعفت أن أنفر مع هؤلاء ، وآثرت موقفا لا أحمده لنفسى ولا ألومها عليه وهو موقف الانتظار • وما أرى الا أنى سأخرج من هذا الموقف كارها ان استطاع الموت أن يقتحم ما أعد له الفرنسيون ليردوه عن هذه المدينة الخالدة ، فما أملك حياتى حين يقدم الموت على باريس • على أنى اجد فى هذه المدينه الخالية التى فر الناس منها ذعرا أو نفر الناس منها حفاظا ونجدة ، شيئا من الشعر الرائع لا أستطيع تصويره ، وانما أستطيع أن أقول انه يملك على نفسى ويفعم قلبى افعاما ، ويحبب الى هذه الارض كما لم أحب أرضا قط •

نعم ! وأجد فى مقامى فى هذه المدينة الخالية لذة لا أدرى كيف أصورها ، وفخرا لا أعرف كيف أصفه • ومع أنى لم أنفر مع الناس فقد يخيل الى انى شجاع ، فليس جبانا ولا ضعيف القلب هذا الذى لم يفر مع من فر ، ولم يعد الى مصر فيمن عاد من الطلاب ، ولم يغير من امره شيئا مع ان كل شىء من حوله قد تغير ، ومازال يتغير ، وانما ظل فى مكانه هادىء النفس مطمئن القلب ينتظر الاحداث والخطوب لا خائفا ولا وجلا ولا مذعورا •

ولقد أخذت على نفسى عهدا الا ابرح باريس مهما تكن الظروف ، وستعلم أنى سأفى بهذا العهد مهما يكلفنى ذلك وان انتهى بى الى الموت • وأى شىء يكون الموت فى سبيل باريس ! لقد اببت ان اكتب اليك فى وصفها وفى وصف الحياة فيها ، لان ذلك لم يكن ميسورا ، ولانى كنت ارجو ان تقدم على باريس فأظهرك على ما تستطيع ان تظهر عليه من امرها ، وقد تأخر قدومك ، وكنت أحب أعلك بالحديث عن باريس • ولكنى عاجز حتى عن هذا ، مشغول بالحديث الى نفسى عن الحديث اليك • فكم لى من

ساعات اخلو فيها الى نفسي حتى تنقطع الاسباب بيني وبين كل شيء ، وبيني وبين كل انسان ! والناس مع ذلك حولي يذهبون ويجيئون ويموج بعضهم في بعض . فأنا لا اخلو الى نفسي هذه الخلوة في بيتي وانما اخلو الى نفسي في الحدائق والمتاحف والقهوات حيث يجتمع الناس ويزدحمون . أخلو الى نفسي امام تمثال من هذه التماثيل . أو عمارة من هذه العمارات ، أو معهد من هذه المعاهد التي يستقر فيها الجد خصبا حافلا بالنفع والامل . لا لأهل باريس ، ولا لاهل فرنسا بل للناس جميعا . ومنهم هؤلاء العدو الذين يقدمون على باريس ومعهم الموت يريدون ان يصبوه عليها صبا .

نعم ! واخلو الى نفسي امام معهد من معاهد اللهو هذه التي تستقر فيها الدعابة فتبعث الفرح في القلوب جميعا ، وتبعث الابتسام على الثغور جميعا ، وتجدد النشاط للعمل وتحبب الحياة الى الذين زهدوا في الحياة

اخلو الى نفسي امام هذه الاشياء التي اراها كنوزا للانسانية

قد حوت خير ماعند الانسانية من فن وادب ، ومن فلسفة وعلم ، ومن عمل وامل ، ومن تفكير وتدبر ، وروية ونشاط .

أخلو الى نفسى امام هذه الاشياء ، وافكر فى ان قوما يزحفون عليها يريدون بها السوء ، ولايكرهون ، ولعلهم يحبون ان يمحقوها محقا ، ويسحقوها سحقا ، ليفضوا من امر باريس ، وليفضوا من امر فرنسا ، دون أن يحفلوا بأنهم ان فعلوا فسيفضون من امر الحضارة كلها ، وسيعلنون فى القرن المتم العشرين كما اعلن آباؤهم فى اول التاريخ المسيحى ان عهد الحضارة والعلم والفلسفة والتفكير والفن قد آذن بزوال ، وان الانسانية قد آن لها ان تستريح من جهدها الخصب المنيف ، وان تعود الى هذه الراحة المجدبة التى يملؤها الذل والعقم والهوان .

أخلو الى نفسى امام هذه الاشياء ، واراها قائمة باسمة نضرة يملؤها الفخر والتيه ويزدهيها الامن ، ثم اراها وقد مستها لفحة من لفحات العدو فاستحال ابتسامها عبوسا ونضرتها ذبولا وكبرياؤها ذلا وخنوعا . واذا أنا مدفوع اليها متصل بها ، فأنا فيها انعم لانها ناعمة ، وابسم لانها باسمة ، وأبتئس لانها مبتئسة ، ويدركنى الموت لانه ادركها .

حرام على فراق باريس حتى اصير الى مثل ماتصير اليه ، وأخرج معها من الاهوال بما تخرج به منها . ولتغضب الجامعة ان شاءت أن تغضب ، ولترض الجامعة ان أحبت أن ترضى ، فقد دعت طلابها الى مصر فعادوا سراعا وأكبر الظن أنها سترد هم الى فرنسا بعد أن تستقر الامور شيئا ، ولكنها ستحول بينهم وبين باريس لان باريس قريبة من الخطر معرضة له دائما . وسيعود هؤلاء الطلاب وقد تقدم انت معهم ، وسيتفرقون من رض فرنسا فى حيث يستقر الامن والسلم ، وفى حيث لاتصل اليكم يد العدو ولا تبلغكم قذائفه . أما انا فمقيم هنا لا اريم ، منتظر هنا مع المنتظرين . ومن يدرى ! لعلى أخرج من هذا الانتظار الى العمل فما ينبغى للرجل الكريم ذى المروءة ان يعيش مع الناس ضيفا

عليهم مستمتعا بما يمنحونه من الامن آخذا باوفر حظه مما يبيحون له من لذة العقل والقلب والجسم ، حتى اذا ألمت بهم الخطوب أو هجمت عليهم الاحداث ، فر عنهم مسرعا لايلوى على شيء ، أو أقام فيهم جبانا أثرا خانعا لا يبتغي الا أن يعيش .

نعم ! ماينبغي للرجل الكريم ذى المروءة والنجدة أن يسير هذه السيرة . وما كنت أحب للجامعة أن تلقى على طلابها هذا الدرس أو تدعوهم الى هذه السيرة ، وانما كنت أحب منها شيئا آخر . وأنا اعلم أن الجامعة أمينة على حياة طلابها مسئولة الى حد ما أمام أهل هؤلاء الطلاب ، ولكني أعلم أيضا أن الجامعة لاتجير من الموت ، وأن أهل الطلاب لن يستطيعوا أن يرجع عليها ان ألمت بطالب من طلابها علة مهلكة أو عدت عليه عادية لامرد لها . وهل الحرب الا بعض هذه العلل والعوادى ! وماذا تقدم الجامعة الى الناس حين تقدم اليهم هؤلاء الطلاب أساتذة قد فروا حين أقبل الخطر ، وآثروا الحياة على الموت حين كان الكرم والشهامة والنجدة وعرفان الجميل حين كان هذا كله يريدهم على أن يسعوا الى رد الخطر كما سعى الفرنسيون ، أو يثبتوا لانتظار الخطر كما ثبت أنا ! انما تقدم اليهم أساتذة قد فروا من الخير الى الشر ، ومن الايثار الى الاثرة ومن الكرم والنبل الى الذلة والهوان .

وأنا أعلم انك أيها الصديق تنكر هذا منى ، وتراه جنونا أو تراه اسرافا . ولكن مارأيك فى أنى أرى هذا طبيعيا ، وأصدر عنه حين أفكر وحين أعمل ، وفى أنى قد رفضت العودة حين عاد الطلاب الجامعيون ، ورفضت الهجرة حين هاجر الطلاب غير الجامعيين الى الاقاليم النائية وآثرت البقاء لم أجد فيه مشقة ولم أتكلف له جهدا . وسينقطع عنى من غير شك راتب الجامعة ، ولن أطلب العون من أهلى ، وما أحب أن تنبئهم من ذلك بشيء . وقد أتعرض للضر ، وقد أذوق لذة الجوع . وما أرى بذلك بأسا ! فان معى ملايين سيتعرضون لهذا الضر ، وسيذوقون هذه اللذة ، وما أحب أن أسعد وهم أشقياء ، ولا أن أشبع وهم جياع . على

انى لا أريد أن أغلو ولا أصور لك نفسى فى صورة البطل ، فلئن نجت باريس من هذا الشر المحدق ، لاعودن الى ما انا فيه من حياة هادئة وادعة . ولئن ألمت بها الكارثة لاكونن واحدا من هذه الملايين التى تشقى . ولكنها لاتصور شقاءها فى الكتب ولا تتحدث به الى الاصدقاء من وراء البحر ، وانما تلقاه ثابتة له مطمئنة اليه ، حتى تنفرج عنها الكربة ، وتزول عنها الغمة ، وتنجاب عنها ظلمة الليل .. ولعل اظهر ماتترك الحرب فى نفوسنا من الآثار انها تهون عليها الحياة ، وتزيل عنها هذه الاغشية التى نسجتها الحضارة لها نسجا من الاثرة وحب اللذة والتهالك عليها ، والطموح الى الترف ، والحرص على الامن والاستمتاع بما يبيح من نعيم . فكل هذا شىء مصنوع متكلف انتجته الحضارة انتاجا . وليس هو فى طبيعة الحياة ، وانما طبيعة الحياة ايسر من هذا وادنى الى السذاجة . انما هى حركة ونشاط يعقبهما سكون وخمود . انما هى هذا الذى نراه فى غيرنا من الحيوان الذى يتبع غرائزه آخذا من نشاطه بأعظم حظ يستطيعه ، حتى اذا ألمت به الكارثة او تلقاه الموت لم ينظم شعرا ولم يكتب نثرا ؛ وانما انتظر الموت مذعنا له ، ودخل فى الفناء كما خرج منه ، لم يرد الدخول فيه كما لم يرد الخروج منه .

نعم ! هذا أظهر ماتترك الحرب فى نفوسنا من الآثار . فنحن نتبع غرائزنا أكثر مما نتبع عقولنا . نحن شجعان دون أن يكون لنا فضل فى الشجاعة . ونحن مؤثرون دون أن يكون لنا فضل فى الايثار . ونحن جبناء واثرون أيضا دون أن يكون علينا فى الجبن والاثرة لوم . انما نقدم أو نحجم لانا ندفع الى الاقدام أو نرد الى الاحجام ، لا نرى من هذا ولا ذاك بدا . ذهبت بالقياس الينا كل فلسفة ، وانحلت بالقياس الينا كل قاعدة ، وأرسلت نفوسنا على سجيتها ارسالا . فنحن ننتهز الفرص حين نظفر بها ، ونستمتع باللذة الى أبعد غاية الاستمتاع حين تتاح لنا ، لانحاسب انفسنا ولانسألها . وفيم الحساب والسؤال ونحن لانفكر فى العاقبة لان فكرة العاقبة

قد محيت من نفوسنا محوا ! وماالتفكير فى العاقبة وما السؤال عنها ، ونحن نراها ساعية الينامشرفة علينا ، قد زلزلت الارض من حولنا زلزالا ! اليست هى فى هذا الموت الذى يسعى الى باريس ويوشك ان يبلغها غدا أو بعد غد !

لست أدرى الى أى عاقبة تنتهى هذه الحرب . ولست أدرى لمن سيتاح النصر ، وعلى من ستقدر الهزيمة . ولكن الذى لا أشك فيه هو أن الناس سيقضون أيام الحرب والاعوام التى تليها متأثرين بالغرائز أكثر مما يتأثرون بأى شىء آخر ، مهدرين لما عرفوا من قيم الاشياء اهدارا ، مزدرين لما ألفوا من المثل العليا . وما أرى الا أنهم سينفقون دهرا متمردين على العقل والخلق ، واجدين فى هذا التمرد أقصى اللذة وأقصى الالم .

لست أدرى أتفهم عنى ، فقد القت الظروف بينك وبينى حجبا كثافا صفاقا ، لعل الكلام لاينفذ منها ، ولعل العقول لاتتصل من دونها .

أنت آمن وأناخائف . أنت هادىء وأنا مضطرب . أنت لاتخشى الموت وأناأراه يسرع الى والى ماحولى ومن حولى فى غير ريث ولا أناة . كم أحب لك أن تعبر البحر لتقرب من ميدان الخطر أو لتسمع حديث الذين دنوا من هذا لميدان ، أو ألموا به ثم ردواعنه . فمهما تكن المدينة التى سترسل اليها بعد أشهر فستكون فيها قريبا من المئات والالاف من هؤلاء الجرحى الذين يوزعون توزيعا على ما أقيم فى فرنسا من المستشفيات ، وستسمع من هؤلاء أو من الذين يتصلون بهؤلاء أنباء الموت وأحاديث الحرب ، وستفهم انها خليقة أن تغير فى الحياة رأى الاحياء . أين أنا ؟ وماذا كنت أريد ان أقول لك حين بدأت هذاالكتاب؟ لقد أنسيت مكانى وانسيت بدء الحديث . وهأنذا ألتفت عن يمين وشمال فأعرف المكان الذى أنا فيه والذى أكتب اليك منه . انها هذه القهوة التى يألفها الادباء فى حى مونبرناس ، والتى تعودت أن أختلف اليها ، وأجلس غير بعيد من أنديتهم ومجالسهم ، لاراهم حين يقبلون وحين ينصرفون ، ولاسمعهم حين يديرون بينهم هذه الدعابة الحلوة ، وهذه الفكاهة ذات الاجنحة ، وحين يتناشدون الشعر، ويتبادلون الرأى فيه حول أقداح الابسنت اذا دنا الظهر أو أقبل الليل ، وحول كؤوس الكونياك وأقداح القهوة بعد الغداء وبعد العشاء . انى لاعرف نفسى فى هذه القهوة التى كانت وقفا او كالوقف على أدباء الحى اللاتينى . ولكنى أختلف اليها منذ أيام فلا أرى فيها حلق الادباء ولا أنديتهم ، وانما هى مزدحمة دائما تكتظ بالمقبلين عليها من كل صوب ، قد اختلطوا اشد الاختلاط ، وتباينت طبقاتهم أشد التباين . وهم يلمون بالقهوة لا يطيلون فيها المقام، انما يلتقون ويفترقون ، ويصيبون بعض ما يحتاجون اليه من شراب بارد أو حار ، ثم يمضى كل منهم لوجهه . ومن يدرى ! لعلهم لا يعودون الى هذه القهوة أبدا . ومن يدرى ! لعل الذين يلتقون فيها لايلتقون بعدهذا اليوم أبدا . وباريس كلهافى هذه الايام تشبه هذه القهوة ، يلتقى فيها الناس سراعا ويفترقون سراعا . كلهم

معجل ، وكلهم قلق ، وكلهم يستقبل الساعة التى هو مقبل عليها غير حاسب للساعة التى تليها حسابا ، لان حساب الساعات لم يبق فى أيدى الناس وانما صار الى يد « أم قشعم » ألستم تزعمون ان أم قشعم هى الحرب! تعال أيها الصديق فانظر اليها وابل سلطانها على النفوس، فسترى وستسمع وستحس أشياء لا صلة بينها وبين ما تقرأ فى شعر زهير .

وداعا أيها الصديق . لقد ذكرت الان فيم اقبلت الى هذه القهوة . فهذه « البن » تقبل على مبتسمة فى هذه الايام التى لايفهم فيها معنى الابتسام ، وأنا ابتسم لها . ولا تسلنى عن البن، فالله قد نهاكم أن تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم . وما أحب أن اسوءك بحديث البن ، فيكفى أن تعلم ان صديقك الذى كان جادا كل الجد ، منصرفا الى الدرس كل الانصراف، قد فارق اللذة وطلق الحب وقطع الاسباب كلها بينه وبين حميدة وفرنند . يكفى أن تعلم أن صديقك هذا قد فارق الجد وقطع الاسباب بينه وبين الدرس، ووصل الاسباب بينه وبين ألين . ولن أحدثك عنها ما دمت هذه الاسباب موصولة ، فاذا انقطعت فسيطول بينك وبينى الحديث . فانت تعلم انى لا أحدثك عن رضاى حين أرضى ، وانما أحدثك عن شقائى حين أشقى ، فتمن لى الشقاء ان حرصت على أن أتحدث اليك .

وداعا أيها الصديق ! ان البن تضيق بانصرافى عنها اليك ولئن مضيت فى هذا الحديث لتمزقن كتابى اليك تمزيقا . فلأنصرف عنك اليها ، ولاستقبل معها حياة المساء فى باريس المضطربة . فمن يدرى عم يسفر لنا الصباح .

١٧

ديسمبر فى ...

وكذلك عبرت البحر فى أيام الحرب وفى فصل الشتاء ، ولقيت من عبوره هذا الشر العنيف الذى خلقته لنفسك خلقا ، وخيلته

اليها تخيلا أيها الصديق . فما كانت سفينتك معرضة لخطر الغواصات . ولو عرفت الجامعة انكم تتعرضون لهذا الخطر ما أرسلتكم الى فرنسا ، فهى حريصة على حياتكم حرصا شديدا . وما كانت سفينتك على صغرها وطول العهد عليها معرضة للغرق ولا لان تحطمها الامواج . فلو كانت تعرض لشىء من ذلك لما أذن لها بالعمل فى البحر . وانما انت رجل من أبناء الريف لا تعرف المخاطرة ولا المغامرة ، فكل جديد عندك خطير ، وكل مشقة عندك مشرفة بك على التهلكة . وها انت ذا قد نجوت من الغرق ، فلم تنسفك غواصة ولم يطغ الموج على سفينتك . فأنعم بهذه النجاة ، وانعم بالوصول الى فرنسا والاستقرار فيها والاختلاف الى جامعة مونبلييه ، وأنعم بما قدر لك من أمن وهدوء ، فلن يبلغ الالمان مونبلييه . وأنى لهم أن يبلغوها وهم قد ردوا عن باريس كما علمت ردا عنيفا ، وهم قد اضطروا الى هذه الحياة التى يحيونها فى الخنادق ينتظرون أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الهجوم ، وينتظر عدوهم من الفرنسيين أن ينحسر الشتاء ليستأنفوا الدفاع العنيف وليخرجوهم من أرض الوطن اخراجا !

اهنأ بهذا الامن فى مونبلييه وان كنت لا أفهم لم وجهتكم الجامعة اليها وصرفتكم عن باريس . فليست باريس أقل أمنا من مونبلييه بعد أن رد الالمانيون عنها ردا وقد كسرت حدتهم وقلت عزائمهم ، فلن يبلغوها بعد اليوم مهما تتح لهم القوة ومهما يواتهم الحظ . ولكنكم قوم تحسنون الاحتياط وتغلون فيه وتتجنبون حتى مظنه الخطر . فلتنعموا بما أتيح لكم من هذا الحذر الذى لن يغنى عنكم من الله شيئا . ولكنى أحب لك ألا تخدع نفسك بالامانى ولا ترسلها مع الغرور ، ولا تخيل اليها أنك تعيش فى فرنسا تلك التى عرفناها قبل الحرب ، فان فرنسا تلك ليست فى المدن ولا فى الاقاليم ولا فى باريس ، وانما هى فى ميدان القتال ، تواجه الموت وتبسم له

بعد أن كانت من قبل توجه الحياة وتبسم لها . ستسمع العلم ولكن من أساتذة شيوخ عجزوا عن حمل السلاح الى الحرب فأقاموا فى الجامعة يعلمون . وستختلف الى الدروس ولكن مع طلاب من الغرباء لا حظ لهم مما كان يملأ نفوس الفرنسيين من فرح ومرح ونشاط . ستعيش فى بيئة مظلمة مكفهرة ، فيها ملل ولكنه بعيد ، وفيها خوف ولكنه قريب . فيها أمل فى فوز فرنسا ، وفيها خوف على أبناء فرنسا . وفيها يأس لاذع يتردد بين ذلك الامل وهذا الخوف . والحياة فى هذه البيئة لا تخلو من لذة وعبرة ومتاع ، ولكنك لا تستطيع أن تراها كما ينبغى ، لانك لم تر فرنسا الفرحة المبتهجة الامنة لتقيس اليها فرنسا المحزونة المكتئبة الخائفة . أفرغ اذن لعلمك ودرسك ، وامنح أكثر وقتك للكتب ، وأجل معرفة فرنسا الى حين ، فانك ان تعرفها حق المعرفة الا بعد أن تضع الحرب أوزارها . ومتى تضع الحرب أوزارها ؟ ..

ما كنت أظن أن حب الاستطلاع يسيطر عليك الى هذا الحد ذهبت فيما زعمت لى الى فندق جنيف حين انتهيت الى مرسيليا وكنت تظن نك ستلقى فيه فرنند . ويحك ! وهل تبقى فرنند فى فندق واحد كل هذا الامد البعيد ! من يدرى أين فرنند بعد ما مضى من الزمن ، وبعد ما اضطربت شئون فرنسا وشئون الارض كلها هذا الاضطراب ، وماذا كنت تريد الى فرنند ؟ وعم كنت تريد أن تسألها ؟ لقد أنبأتك بما وسعنى أن أنبئك به من أنبائها . فهل كنت تريد أن تمتحن ذوقى ! أم هل كنت تريد ن تعرض نفسك لمثل ما عرضت نفسى له من المحنة ؟ انك لست فى حاجة الى فرنند ان كنت تريد أن تبلو مثل مابلوت ، فأمثال فرنند كثيرات فى كل فندق وفى كل مدينة وفى كل بيئة . فاحذران تتعرض لمكرهن ، وارفق نفسك عن هذا الشر الذى غمست نفسى فيه ، والذى لا أستطيع أن أخلص منه مهما ابذل من جهد واتكلف من عنا

لقد صدق « موسيه » حين شبه قلب الرجل النقى بالاناء

العميق ، اذا استقر الدنس فى قاعة فليس الى تطهيره من سبيل ، ولو مر به ماء البحر كله . ان قلبى هو هذا الاناء ، وقد استقر فى قاعه هذا الدنس . ولقد حاولت تطهيره ما استطعت الى ذلك سبيلا : بالتفكير والتدبر ، بالقراءة والدرس ، بالجد والنشاط ، بهذه المثل العليا التى كنت اتخذتها وأجد فى السعى اليها ، وأوفق احيانا فى هذا السعى بما حاولت من ارضاء الاساتذة ، وبما حاولت من ارضاء مراقب البعثة ، وبما حاولت من ارضاء الجامعة ، وبما بلغت من هذا كله ، ولكنى مع ذلك لم أستطع أن امحو من قرارة نفسى هذا الدنس الذى استقر فيها فلزمها لزوما ، واتصل بها اتصالا لا انقطاع له .

لقد خيل الى فى بعض الاوقات أنى قد خلصت من الشر وبرئت من الاثم ، وارتفعت عن النقيصة ، وأنى قد كفرت بالمرض الطويل الثقيل المهلك عما اقترفت من السيئات ، وأنى قد طهرت نفسى بالعلم تطهيرا ، وكرمتها بالدرس عن كل ما يفسدها ويشينها ، وأخذت أكبر نفسى وأغالى بها ، ولكننى تبينت بعد ذلك أن الحياة غرور كلها ، وان القضاء نافذ بالغ أجله مهما نفعل ومهما نحاول . وقد عرفت قضاء الله فى أمرى . فأنا رجل موكل بالجد واللهو معا ، أبلو اللذة حتى أصل الى أقصاها ، وابلو الالم حتى انتهى الى غايته ، أقبل على العلم حتى كأنى لم اخلق الا للعلم ، ثم أقبل على اللهو حتى كأنى لم أخلق الا للهو . أقبل على العلم فلا يصرفنى عنه صارف مهما يكن ، وأقبل على اللهو فلا يشغلنى عنه شاغل مهما يكن . يتاح لى الغنى ويلم بى الفقر ، فلا يمنعنى هذا ولا ذاك من المضى فى العلم ان كنت مقبلا عليه ، ولا من المضى فى اللهو ن كنت منصرفا اليه . وقد عرفت الين — ان كنت تذكر الين — من أمرى هذا كله ، فقبلته منى وجارتنى فيه ، وأخذت ان راتنى مقبلا على العلم تهملنى حتى كأنها لم تعرفنى قط ، وان راتنى مقبلا على اللهو تمنى بى حتى كأنها لم تعرف غيرى قط . وانا ياسيدى كما ترى لعبة تتقاذفها معاهد العلم ومنازل اللهو . وقد بقى لى

شيء من ارادة ، فانا انفقه فى تنظيم امرى على وجه ما ، وأود لو استطعت أن ألائم بين هذين العدوين اللذين يختصمان فى اختصاما . وأود لو استطعت أن أقسم وقتى وجهدى بينهما قسمة عادلة ، فللعلم شطر منهما وللهو شطر اخر . فمن يدرى ! لعلى ان وفقت لهذه القسمة أن أصلح مزاجى بعض الاصلاح ، وان انظم أمرى بعض التنظيم ، وأن أنتهى الى نتيجة أرضاها وأرضى بها من لا بد أن ارضيهم من الناس. وقد أخذت فى هذه التجربة منذ أسابيع ، وأنا أبذل فيها جهدا عنيفا وألقى فيها شططا شديدا ، وأخشى كل الخشية الا اوفق لشيء . لقد أخذت أدرس اللاتينية ، ورتبت نظام الدرس مع الاستاذ ترتيبا رضيه وأقره ، فلما أخذنا فى تنفيذ ما اتفقنا عليه لم نجد الى ذلك سبيلا . ولو انك سألته عنى لانبأك فى يأس وحزن بأنى أكسل الناس وأنشط الناس ، وبأنى أقدر الناس على العمل وأعظمهم حظا من التوفيق ، وبأنى أعجز الناس عن الجد وأعظمهم نصيبا من الخيبة . اما فى اول أمرنا فقد كان لا يزورنى الا وجدنى مستعدا للقائه متهيئا لدرسه ، وكان يزعم لى أنى سأتقدم للامتحان فى وقت قريب وسأفوز فيه فوزا مبينا . ثم تمضى أسابيع ، واذا أنا قد صرفت عن العلم ودفعت الى اللذة ، وأفلت من السوربون ولزمت ذراعى الين . ويزورنى الاستاذ للدرس مع الظهر فيجدنى مفرقا فى النوم لانى أفنيت الليل ووجه النهار فى اللهو والعبث والمجون فيستيئس اذا تكررت زيارته فى غير جدوى .

ولكنى أفرغ له بعد حين ، فأسعى اليه وألح عليه ، وأعوض ما فات وأصلح ما فسد ، وأرضيه بعد سخط . وعلى هذا النحو تمضى حياتى منذ حين ، ولم يزدها شبوب الحرب الا مضيا فى هذا النحو من الفساد والاضطراب . فقد محت الحرب من نفسى كل ثقة ، وذادت عنها كل يقين ، وأهدرت فيها كل قيمة للعمل والامل والحياة . فأنا أحيا لغير شيء ، أو قل انى لا أحيا ، وانما أنتظر شيئا مجهولا لا أعرفه ولا أريد ان اعرفه ،

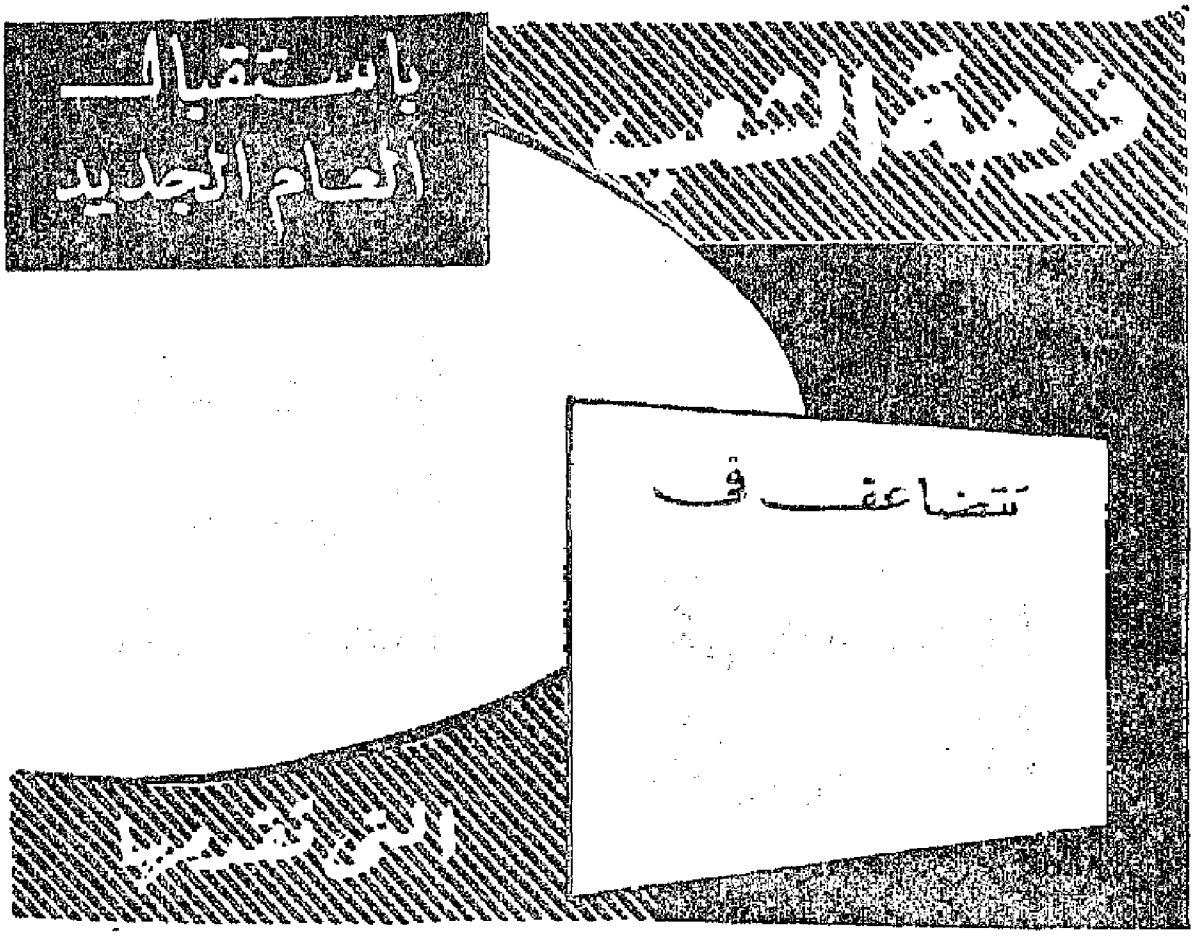
باستقبال
العام الجديد
تتضاعف في
محلات
الكيري
في فروعها الثلاثة : بشارع عماد الدين - وشارع فؤاد الأول - شارع الفجالة
وتعرض فيها
أحدث وارقع المبتكرات العالمية من الأصواف والأقطان
الحرير . الفراء . المفروشات . السجاد . منتجات الفرو . الأحذية
ملابس جاهزة للسيدات من ابتكار دور الأزياء العالمية
ملابس جاهزة للرجال .. أسعار خاصة
لاستقبال المناسبة أكرانا للعام الجديد السعيد
فرع الفجالة ت ٧٧٣٣٦ - فرع الأزبكية ت ٧٧٣٣٥ عماد الدين ٧٧٣٦٥

ولو قد أردت لما استطعت . وأنا انتظر هذا الشيء المجهول كما أستطيع أن أنتظره، مستعينا عليه بالعلم والجد حين أفرغ للعلم والجد ، وباللهو والعبث حين أتقطع للهو والعبث . وقد يتاح لي أن أفكر في ذلك ، وأن أمتحنه وأحاول أن اتعرف أسبابه ، فأشعر بأن نشأتي في مصر هي التي دفعتني الى هذا كله دفعا وفرضت هذا كله على فرضا. لاني لم أنشأ نشأة منظمة، ولم تسيطر على تربيتي وتعليمي أصول مستقيمة مقررة ، وانما كانت حياتي مضطربة كلها أشد الاضطراب ، تدفعني الى يمين وتدفعني الى شمال ، وتقف بي أحيانا بين ذلك . ولو أني بقيت في مصر لانفقت حياتي كلها كما بدأتها في هذا الاضطراب المتصل في غير نظام والى غير غاية . ولكني عبرت البحر الى بيئة لا يصلح فيها الاضطراب ، ولا تقوى على الحياة فيها نفوسنا الضعيفة المضطربة ، فلم أحسن لقاءها ولم أحسن احتمال الانتقال فيها ، ولم أحسن الخضوع لما تفرضه من نظام واطراد . ثم كانت الحرب واضطربت الدنيا، وأضيف في نفسي فساد الى فساد واضطراب الى اضطراب ، ففقدت نفسي محورها - ان صح هذا التعبير - وأصبحت لعبة تتقاذفها الاهواء .

ما أشد حاجتي الى قربك أيها الصديق ! فقد تقدر على أن تنفعني ، ولكني لا أستطيع أن أفر اليك من باريس ، فالموت أهون علي من ترك باريس ، ولا أستطيع أن أنتقل الى حيث انا، فالجامعة تحول بينك وبين هذا الانتقال . واني مع ذلك لاخشى على نفسي كل شيء ، واني مع ذلك لاظن اني لن أعود الى مصر - أن عدت اليها - سالما موفور العقل مستقيم الملكات قادرا على النفع والانتاج .

فلينفذ القضاء اذن ، ولتتم كلمته . فلئن ذهبت في غير نفع فما أكثر الشبان الذين يذهبون في غير نفع هذه الايام !

١٨

يناير سنة ..

ان ظننت أيها الصديق ان في بقية من عقل أو فضلا من ارادة ، فانف عن نفسك هذا الظن نفيا . فالبرهان يقوم لي

كل يوم على انى أسعى الى الجنون فى سرعة تزداد بين حين وحين، كما تزداد سرعة السقوط بالجسم الذى يهوى الى الارض بين ثانية وثانية . فان كنت فى شك من ذلك فاعلم أنى انفقت فى القراءة وفى القراءة وحدها اجازة عيد الميلاد ورأس السنة على حين كان الناس ينصرفون الى ما ينصرفون اليه فى هذه الايام التى هى أيام بهجة وعيد عادة ، والتى يشوبها الحزن والالم . هذه المرة كنت أنا عاكفا على « سيسيرون » و « تاسيت » قراءة وفهما وترجمة . . وكنت أجد لذة فى هذه الليالى التى انفقها من وراء الباب مع الكتاب القدماء والشعراء القدماء ، على حين يحيا الناس حياتهم ويجدون فيها ما يجدون من اللذات والالام . وقد أنسيت كل شىء وأنسيت كل انسان . ولولا أن الخادم كانت تحمل الى الطعام أو تدعونى اليه لانسيته أيضا . وقد انقطعت الصلة بينى وبين الين فى هذه الايام التى كان يجب أن تقوى فيها الصلة وتكون بمأمن من الضعف والفتور .

ثم انقضت الاجازة ، وجعلت اختلف الى السربون ، فسمعت درس اللاتينية وظفرت بثناء الاستاذ وخرجت ولكنى لم أذهب الى بيتى ، وانما ذهبت الى حيث ألقى الين . وقد لقيتها ، وانفقت معها اليوم بعيدا عن باريس فى غابة من هذه الغابات الجميلة القريبة ، ثم عدنا ولم نفترق الا لنلتقى بعد قليل . وأنا أختلس هذه الدقائق لاكتب اليك ، ولاظهرك من أمرى على أطوار هذا المرض الذى يسعى الى ، أو يسعى فى سعيا حثيثا . وثق بأن السربون لن ترانى غدا ولا بعد غد ، بل ثق بأنى لا أعلم متى ترانى السربون

وداعا يا سيدى . انى لارى شبح الجنون بغيضا مزعجا ، ولكنى مع ذلك لا أهابه ولا أتأخر عنه ، وانما أقدم عليه اقدام المحب الجرىء . وكيف أحجم عن الجنون وقد اتخذ لنفسه صورة الين !

١٩

يوليو فى ...

لم يكن الامتحان عسيرا ، ومع ذلك فقد أخفقت فيه أجمل اخفاق وأروعه ، هذا الاخفاق الذى لا يظفر الطالب فيه بدرجة أو بعض درجة ، وانما يظفر فيه بالصفر المريح . ولن تعلم الجامعة من أمر هذا الامتحان شيئا ، فقد تقدمت اليه سرا ، فلن أؤدى لها حسابا عن مال لم تنفقه وأمر لم تحط به علما . لم أكن أشك فى الفوز ، فقد وعدنى به أستاذى الخاص الذى أتعلم عليه اللاتينية ، ووعدت نفسى به وتهيأت له كأحسن ما يتهيأ طالب الامتحان . ولكن أدركتنى نوبة المرض أو نوبة اللهو — ان أردت الدقة فى التعبير — قبل موعد الامتحان بأسبوعين ، فقضيت هذين الاسبوعين مع الين ، نهيم فى الغابات اذا كان النهار ، ونطوف على الحانات اذا كان الليل ، ولا نلم بالبيت الا مطلع الفجر .

كانت الين تذكرنى بموعد الامتحان ، وتحذرنى عاقبة هذا الجنون ، وتصور لى جمال الفوز ، وتمنينى تلك الايام الجميلة التى سننفقها بعيدا عن باريس اذا كان الصيف . ولكنى كنت أعرض عنها أشد الاعراض ، وأزجرها أشد الزجر . فقد كان شيطان اللهو قد ملأ قلبى ونفسى وركب كتفى .

ثم أصبح يوم الامتحان فلا أتردد فى الذهاب الى السوربون ولا فى دخول حجرة الامتحان ، وآخذ النص اللاتينى فأقرؤه وأقرؤه ، ثم أقرؤه وأقرؤه ، فلا أفهم شيئا ولا اصنع شيئا . وأنا أبذل جهدا عقليا عنيفا لعلى أوفق لفهم جملة أو بعض جملة ، فاذا لم أظفر بشىء رددت النص كما أخذته ، وانصرفت الى بيتى راضيا محزونا معا . ثم لا أكاد أخلو الى هذا النص بعد ذلك بساعة أو ساعتين حتى أفهمه فى غير مشقة وأترجمه فى غير جهد ، واستوثق من أنى كنت خليقا أن أفوز واذا قلبى يمتلىء

سرورا وبهجة ، واذا أنا أسرع الى الين فأنبئها بأنى جمعت بين الفوز والاخفاق معا .

وداعا يا سيدى ! سأنجح فى نوفمبر اذا لم يدركنى الشيطان . فأما الان فالى اللهو ، الى اللهو المجنون الذى لا يعرف رفقا ولا مهلا ولا تفكيرا . الى اللهو حتى يضعف العقل والجسم معا ، وحتى أضطر الى الراحة ثم الى الجد اضطرارا .

٢٠

سبتمبر ...

واذن فقد زرت فرنسا وأقمت فيها ، وستعود الى مصر ولم يكن بينك وبينى هذا اللقاء الذى كنا نرجوه . ولست أدرى أيسوؤك هذا أم لا يسوؤك ، ولكنى أعلم انه يسوؤنى حقا ، فقد كنت حريصا على لقائك بعد أن طال افتراقنا ، وقد كنت حريصا على لقائك لاستعين بك على نفسى وعلى ما يدهمها من الاحداث والخطوب . ولكن الجامعة أبت أن نلتقى ، وأبت الظروف أن تطول اقامتك فى هذا البلد حتى تتاح لنا فرصة اللقاء . وانى لارجو أن تتاح لك عودة قريبة ، فما أرى أنك قد زرت فرنسا ولا انتفعت بزيارتها ، وما اظن الا انك ستعود وفى نفسك حسرات لا تنقضى . فليس من الهين أن تدنو من الغاية ثم تردعنها أردا ولا أن تشارف الامل ثم تقطع بينك وبينه الاسباب . ولست فى حاجة الى أن انبئك بأنى قد رفضت الاذعان لامر الجامعة ، وأبيت أن اعود فى هذه المرة كما أبيت ذلك فى العام الماضى . وكيف تريدنى على أن أعود وقد أنفقت أعواما فى فرنسا ، ثم لم اصنع شيئا تحسن العودة والاطمئنان اليه ، وانما كان حظى من الفساد والشر أكثر من حظى من الصلاح والخير ! وماذا تريد أن أقول حين أعود الى مصر فأسأل عما صنعت ؟ أأحدث الناس عن فرنند والين وما لقيت عندهما مما أحب وما لا أحب ؟ أم احدث الناس بذلك المرض الذى

ألح على جسمى حتى أشرف بى على الموت ؟ أم أحدثهم بهذا المرض الذى ألح على عقلى حتى أشرف بى على الجنون ؟

لا ياسيدى ! ان العودة الى مصر شىء لم يقدر لى بعد ، ولو انى بلغت من مقامى فى فرنسا كل ما اريد لما رضيت هذه العودة ولا أجبت اليها . فأنت تعلم انى قد نذرت الا أترك باريس حتى أصير الى ما تصير اليه ، وحتى ارى مخرجها من هذه الحرب كيف يكون . وما أبعد الامد بيننا وبين آخر الحرب كما ترى ! فالاسباب مقطوعة بينى وبين مصر حتى تنكشف هذه الغمة . وهب كل شىء يجرى كما أحب ، فكيف أعود الى مصر دون أن أصطحب الين وليس لى الى الحياة سبيل اذا لم أكن قريبا من الين ، أراهامتى شئت وترانى متى أحببت ، وأفزع اليها حين أضيق بحياة العمل والجد ، والين فرنسية لا تريد أن تهجر وطنها ، ولا أن تفارق باريس وان اعطيت ملء الارض ذهبا . فاقامتى فى فرنسا قضاء محتوم لا مندوحة لى عنه . وشهد الله ما أجد لذلك ألما ، وانما أجد فيه اللذة كل اللذة . فاقرأ تحيتى على مصر ان شئت ، ولا تحدث أصحابنا بشىء من أمرى . وان سألك أهلى عن بعض أمرى فقل لهم ما يخطر لك ، ولكن احذر أن تنبئهم من حقيقة أمرى بشىء ، فما ينبغى أن نشق على هذين الشيخين ، وما ينبغى أن نشمت بنا الشامتين .

وبعد فان أمور مصر محزنة حقا . أليس مما يسوء ويحزن ان يعجز هذا البلد السعيد الناعم بالسلم ومنافعها عن أن يمد الجامعة من المال بما يمكنها من استيقاء بعوثها فى أوربا حتى تتم ما أرسلت من أجله ؟

أو ليس مما يحزن ويسوء أن نرى هذه الجهود الضخمة الشاقة التى تبذلها الشعوب الصغيرة لتثبت للحرب وتحتمل أثقالها ونفقاتها ، وتضحى فيها بما تضحى به من الانفس والاموال ، وان نرى مصر عاجزة أو بخيلة لا تستطيع أو لا تريد أن تنفق على عشرة من أبنائها يدرسون العلم فيما وراء البحر ؟ ولكن ماذا ينفع الحزن والاسى ، وماذا يجدى اللوم والتقريع ؟ لابد

مما ليس منه بد . عد الى مصر فأنت مضطر الى أن تعود . ولابق أنا فى فرنسا ، فأنا مكره على أن أبقى . وسنرى ايتاح لنا أن نلتقى ، وأين يتاح لنا أن نلتقى .

وداعا أيها الصديق وان لم يكن بيننا لقاء .

٢١

وأعود الى باريس بعد ثلاثة أشهر قضيتها فى القاهرة فأرى صاحبى ، ولكنى لا أكاد أعرفه لولا صوته الذى لم يتغير ولولا ضحكاته العراض التى لم تهذبها الاقامة فى باريس ، فأما غير ذلك من أطوار نفسه فقد تغير حتى أنكرته أشد الانكار . فصاحبى محزون مغرق فى الحزن ، حتى ليفسد عليك رأيك فى الحياة ان لقيته فى هذا الطور . وصاحبى مسرور مغرق فى السرور ، حتى ليثير فى نفسك الاشفاق عليه من هذا الاغراق فى السرور ان لقيته فى هذا الطور أيضا . وصاحبى ينتقل من الحزن الى السرور ومن السرور الى الحزن فجأة فى غير تهيؤ ولا تدرج ولا انتظار لهذا الانتقال . وانما أنت مع رجل بائس يائس ، سيىء الرأى فى الحياة والاحياء ، قد أظلم كل شىء فى وجهه وفى نفسه ، فلست تسمع منه الا شرا ونكرا . واذا أنت ترى هذا الرجل وقد وثب فجأة من نقيض الى نقيض وأصبح فرحا مرحا ، منطلق اللسان بالثناء على كل أحد وعلى كل شىء ، ممتلىء الفم بهذا الضحك المزعج الغريض ، لا يتكلم هادئا ولا يتحرك هادئا ، وانما هو عنيف فى لفظه ، عنيف فى حركته ، عنيف فى كل شىء ، حتى انه ليلفت اليه واليك الناس ، وحتى انه ليخيفك من أن ينكر الناس مكانكما ويدعوكما الى الصمت والى ايثار الهدوء .

وصاحبى ان حزن لا يعدل بالكتاب شيئا ، وصاحبى ان سر لا يعدل بالشراب شيئا . وهو مسرف فى صحبة الكتاب يأخذ المجلد الضخم فلا يكاد ينصرف عنه حتى يزدرده ازدرادا . وصاحبى مسرف فى الشراب اذا أقبل الليل عليه لم تكفه الزجاجة ولا الزجاجتان من معتق النبيذ ، وانما يشرب حتى يعجز عن الشرب . وهو

لا يعجز عن الشرب الا حين تعجز يده عن تناول الزجاجة وصب شيء من روحها فى القدح . واذا انتهى العجز بصاحبى الى هذا الحد لبث مكانه لا يريم ، نائما كالمستيقظ ، ومستيقظا كالنائم حتى تنجلى عنه الغمرة بعد ساعات . وصاحبى يختلف الى السوربون قليلا ولا يكاد يختلف الى القهوة ، ولكنه يلزم بيته فى اكثر الوقت . وقد يستخفى اليوم او الايام لانعلم اين هو ، ثم نلقاه فنسأله فينبئنا بأنه كان مع الين . ولم يتح لاحد من اصحابه ولم يتح لى بالطبع ان نرى الين هذه او نسمع منها او نتحدث اليها ، حتى لقد كان يخيل الينا انها شخص من أشخاص الاساطير قد خلقه صاحبنا لنفسه خلقا فى وقت من اوقات سكره ولهوه . ولكنه كان يحدثنا عنها فيطيل الحديث ، وكانت احاديثه لاتصور شخصا مخترعا ، وانما تصور شخصا حيا يذهب ويجيء ، ويعبث ويلهو ويعين على العبث واللهو ، ويدفع اليهما احيانا . وكثيرا ما ألححنا على صاحبنا فى ان يعرفنا الى الين او يعرفها الينا ، فلم نكن نلقى منه الا اباء واعراضا . وكان يقول : ان حب الاستطلاع اثم ، فما تريدون الى الين ؟ انى احدثكم من امرها بما يعنيكم ومالا يعنيكم ، والين صاحبتى انا لاصاحبتكم انتم ، ولن يكون لكم منها الا هذا الذى تسمعون عنها ، وانه لكثير اكثر مما ينبغى . وكثيرا ما جد بعض اصحابنا فى تتبعه والبحث عن الين فلم يظفر بطائل . ولولا انى رأيت الين بعد ذلك لما شككت فى انها كانت شخصا من اشخاص الخيال .

وقد أنفقنا عاما دراسيا كاملا على هذا النحو ، ألقى صاحبى بين حين وحين فأنكر من امرها اكثر مما اعرف . ولاتتصل بينه وبينى تلك الاحاديث التى كانت تتصل بيننا فى القاهرة والتى كانت لاتنقضى ، وانما تلتوى وتعوج ، وتخرج بنا من موضوع الى موضوع ومن رأى الى رأى ، حتى اضرع اليه فى ان يقفها لانه اعيانى واجهدنى حقا .

لم تكن تتصل بيننا هذه الاحاديث فى باريس ، انما كان

صابون الشمس

أجود الأصناف وأكثرها
انتشارا فى الأسواق

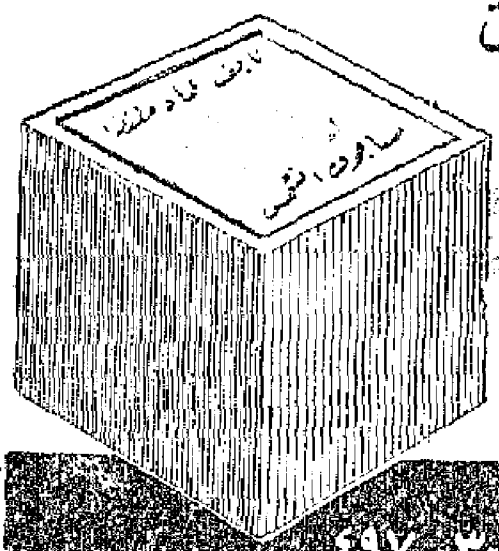

انتاج

شركة مصانع الصابون المتحدة

ش.م.م

سابقا نايف عماد

المركز الرئيسى و مطبعات ٣٦١ - ٤٩٧
فرع القاهرة ٢٥٤٠ - فرع الاسكندرية ٢٦٥٩

يلم بحديث عن السوربون قليلا ويطيل الحديث عن الين ، مثنيا عليها حينا ، شاكيا منها حينا اخر ، واصفا محاسن جسمها ومحاسن نفسها دائما .

ثم يفرق الصيف بيننا ، فاذهب انا الى الجبل ، ويقيم هو فى باريس لايكاد يفارقها الا الى ضاحية من الضواحى او غابة من الغابات ينفق فيها النهار او بعض النهار مع الين .

ثم أعود الى باريس آخر الصيف وقد قدمت اليه النبأ بعودتى فاذا بلفتها لم ألقه ، فاذا انتظرته لم يسع الى ، ولكن صاحبة الباب تصعد الى ذات صباح وتدفع الى قطعة من الورق ما أشك فى انها قد اقتطعت من علبة من علب السجائر وقد كتب عليها بخط مضطرب هذه الكلمات : « صديقك مريض ينتظر عيادتك » .

فأسرع اليه فأراه . ويا شرما اراه ! ارى صاحبى مريضا لاتظهر عليه آثار المرض ، ولكنه مؤمن كل الايمان بانه مريض ، لايشكو شيئا ، ولكنه واثق كل الثقة بانه مريض . قد عرض على الاطباء فلم ينكروا من فحصه شيئا ، ولكنه مقتنع كل الاقتناع بانه مريض وبان الاطباء مخطئون . ولا أكاد اتحدث اليه واتبسط معه فى الحديث حتى أستيقن انا ايضا انه مريض وان مرضه أخطر جدا مما يظن ومما كنت أقدر ، فقد انتهى الى الجنون الذى كان يخشاه او الى شىء قريب جدا من هذا الجنون .

كان يتحدث الى فى أمر السربون أو فى أمر الين فيستقيم الحديث استقامة حسنة ، ولكنه لا يكاد يسمع فى الجو أزيز الطيارة — وما كان أكثر مايسمع أزيز الطيارات فى باريس — حتى ينهض بل يثب ويهم بالخروج . فاذا سألته ماخطبه ؟ أجاب : ألست تسمع أزيز هذه الطيارة فانه دعاء لى الى الخروج .

وكان قد استقر فى نفسه أن الصحف الفرنسية كلها مجمعة على مقته وبغضه والكيد له . وكان يشترى منها أكثر ما يستطيع شراءه ، وينفق فى قراءتها أكثر وقته ليتبين هذا الكيد الذى تكيده

له ، وهـذا المكر الخبيث الذى تمكره به . ولم يكن يلقى فى ذلك كبير جهد ، فقد كان هو ألمانيا ، وكان كل ما تذكره الصحف عن المانيا موجها اليه ومنصبا عليه انصبابا . وكان يؤذيه من أمر هذه الصحف أنها لا تعرف له حبه لفرنسا ووفاءه لباريس واقامته فيها حين تفرق عنها الناس . ما أشد جحود الفرنسيين للجميل وكفرهم لصداقة الصديق !

ثم يعظم الامر قليلا قليلا ، واذا الحلفاء جميعا يمكرون به ويكيدون له ويدبرون له السوء . ولم لا ؟ أليس الحلفاء يحاربون ألمانيا وهو ألمانيا ! وأصبح ذات يوم مرتاعا حقا ، فقد جاءه النبأ — ولست أدرى كيف جاءه ولا من أين جاءه — بأن الحلفاء يأتمرون به لينفوه الى المغرب الاقصى . وهو ينبئنى بأنه قد جد فى السعى لصرف الحلفاء عن هذا الاثم العظيم والظلم الفبيح ، فكتب الى جماعة من أساتذته فى السربون والى جماعة من كبار الساسة فى مجلس النواب والشيوخ يقص عليهم القصة ويستعينهم على اتقاء هذه الكارثة وهو ينتظر ردهم عليه ، ولكنه ضيق بباريس هذه الخائنة الماكرة التى لا تعرف جميلا ، ولا ترعى حقا ، ولا تحفظ ود الصديق ، والتى هى فى حقيقة الامر صورة صادقة لهذه الفتاة الخائنة التى كانت تسمى الين والتى قد جحدت حقه ونسيت مودته وأعرضت عن حبه اعراضا ، وأخذت تكيد له مع الكائدين وتمكر به مع الماكرين . وهو يلح على فى أن يفارق باريس وينتظر الرد على كتبه فى مدينة أخرى أقل خيانة وغدرا من هذه المدينة الخائنة الغادرة التى يسكنها الخونة الغادرون . والطبيب الذى يعوده لا يرى بأسا بأن يفارق باريس ويقيم فى مكان معتدل الهواء كثير الشجر . وما هى الا أن يستقر صاحبى فى أحد الفنادق غير بعيد من باريس فى طرف غابه من الغابات . ومن هذا الفندق تصدر رسائله التى لا تنقضى الى أساتذة السربون والى رجال وزارة الخارجية والى أنا . ويالها

من كتب تلك التي كانت تنتهي الى في الصباح والمساء من كل يوم ! حسبي أن أثبت منها هذا الكتاب القصير ٠

نوفمبر في ٠٠٠

لم يبق لي أمل ولا شيء يشبه الامل أيها الصديق ، فقد أجمع الحلفاء أمرهم وأمضوا عزيمتهم لا يقبلون في ذلك مراجعة ولا شفاعة ، بل هم قطعوا على الشفاعة كل طريق ، فأفسدوا على حتى أساتذة السربون الذين كانوا يحبونني ويؤثرونني أشد الايثار٠ فهؤلاء الاساتذة يتلقون رسائلي فلا يردون عليها ، وأكبر الظن أنهم قد عرفوا خطي فهم لا يقرأون كتبي اذا انتهت اليهم٠ والغريب أن أحدهم فلانا ٠ كان قد امتلأ قلبه حبا لي واعجابا بي حتى قبل ما عرضت عليه حين خطبت اليه ابنته ٠ وهذه الخطبة هي التي غاظت الين فصرفتها عني ولست أدري من أبلغها أمر هذه الخطبة التي كانت سرا ، الا أن يكون هذا الصديق الماكر الذي تعرفه، فقد شربت معه ذات ليلة وتبسطت في الحديث٠ فلما أصبحت انتهيت الى رسالة القطيعة من الين ٠

والين من غير شك هي التي أفسدت على قلوب الحلفاء وصورتني لهم في صورة العدو الخطر المخيف، وهي التي زينت لهم نفيي الى المغرب الاقصى ٠ يالغيرة النساء! ويالكيد النساء ! ويالضعف الرجال ! ويالسذاجة الرجال ! وان كانوا أساتذة في السوربون أو ساسة محنكين ٠ لم يبق لي أمل في عفو الحلفاء ٠ عفوهم عن ماذا ؟ وهل جنيت عليهم ذنبا أو اقترفت في ذاتهم اثما ؟ لقد كنت أدافع عنهم في كل فرصة٠ وأذود عن حقوقهم بالقلم واللسان ، ولكنهم قد أجمعوا أمرهم على نفيي ، وأنت وحدك القادر على حمايتي ووقايتي من هذا النفي٠ وماذا تريد أن أصنع في المغرب الاقصى ! أليست مصر أولى بي ، أو لست أنا أولى بمصر ! أن في مصر حميدة وان في فرنسا الين، وجوار حميدة على بغضها لي أهون علي من جوار الين ، فان حميدة لم تؤلب علي ، ولم تكد لي ، وانما تلقت اساءتي اليها بالصبر والعفو ٠ أما الين فقد تلقت

احسانى اليها بالجحود والعقوق. فلا مقام لى فى هذا البلد ، و سبيل الى الرحيل الا أن تعيننى عليه وأن تحكم تدبيره احكاما فعيون الحلفاء يقظة لا تنام ، وجواسيسهم منبثة فى المحطات والثغور . ولست أدرى كيف تريد أن تدبر الامر . ولكنى معتمد عليك فى اخراجى من هذه الارض . وأنا مستعد للتنكر فيما شئت من الاشكال والازياء حتى أبلغ مصر . فاذا وضعت الحرب أوزارها وتبين للحلفاء أنهم قد ظلمونى حين أساءوا الظن بى وسمعوا ؛ وشاية الوشاة ، فمن يدرى لعلى أعود الى فرنسا فأتم درسى فى السربون وأقترن الى هذه الفتاة التى أحبها حبا لا حد له والتى قد رضينى أبوها لها زوجا ، والتى كدت أسعد بزواجها لولا الين ، ولولا وشاية هذا الصديق الخائن . صدقنى ان من ضعف الرأى وفساد العقل أن تطمئن الى هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أصدقاء .

٢٢

وتحمل الى صاحبة الباب ذات مساء حقيبة ضخمة ومعها هذا الكتاب

سيدى :

أنت تعرفنى من غير شك ، فكثيرا ماحدثك عنى صديقك .. وكثيرا ماحدثنى عنك ، وقد صورك لى دائما على أنك أحب أصدقائه اليه ، وأوفاهم له ، وأحفظهم لسره . فأنا أحمل اليك هذه الحقيبة بعد أن احتفظت بها عاما كاملا ، لا لانى كنت أنتظر أن يعود صاحبها الى ، فقد أيأسنى الاطباء من شفائه ، بل لانى كنت أجد الجهد كل الجهد فى فراقها ، وفى فراق مايتصل به من الكتب والمتاع . ولكن هذه الاعوام التى نحياها قد علمتنا الاذعان للقضاء والخضوع لما ليس منه بد . فاليك هذه الحقيبة ياسيدى ، فان لصاحبها من أبناء وطنه أهلا وأصدقاء هم أحق منى بما فيها وأجدر أن يفهموه ويقدروه

وفى بيتى غرفة مغلقة منذ عام فيها كتب كثيرة جدا ومتاع ليس بذى بال ، فهذه الغرفة طوع أمرك متى شئت أقبلت فأخذت مافيها ووجهته حيث أحببت

وتلك ياسيدى تحية ملؤها الحزن الذى ما أظن أنه سينقضى أو تهدأ لوعته قبل زمن طويل .

***

وقد حفظت هذه الحقيبة بضعة عشر عاما لا أعرف من أمرها الا أنها مملوءة بالاوراق . فلما اتاح الظالمون لى شيئا من فراغ، نظرت فى هذه الاوراق فاذا أدب رائع حزين صريح ، لا عهد للغتنا بمثله فيما يكتب أدباؤها المحدثون . وقد هممت بنشره وقدمت بين يديه هذا الكتاب . ولكن هل تسمح ظروف الحياة الادبية المصرية باذاعة هذه الآثار يوما ما ؟ !